المنظور الاجتماعي التربوي

في

قضية المرأة وسنّة التعدد

لافتات اجتماعية حول: تاريخ المرأة وحقوقها بين الإسلام والغرب

تعدد الزوجات بقلم امرأة، كواكب حول الرسول ﷺ

علاء الدين المدرس

دار الرقيم للنشر والتوزيع- بغداد

الطبعة الثانية

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ – ١٩٩٤م

الطبعة الثانية

١٤٣٢هـ – ٢٠١١م

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٧٠١ لسنة ٢٠١١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾

سورة الروم/ ٢١

﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾

سورة النساء/ ٣

الفهرس

المقدمة

يضم هذا الكتاب خمسة أقسام رئيسية تخص قضية المرأة وحقوقها المدنية والشرعية والسياسية بشكل عام وموضوع التعدد والعلاقة الزوجية بشكل خاص. وقد استلت هذه البحوث في الأصل من مصادر عديدة، وقد قمنا بجمعها وترتيبها في كتاب واحد، للترابط بين مواضيعها، واستكمالاً للفائدة، ومحاولة لإحياء سنة التعدد في الزواج التي باتت متّهمة بنظر المسلمين فضلاً عن خصومهم، فإن التعدد مباح كالإفراد سواء بسواء، كما هو مؤكد في القرآن والسنة، بل ان سنة التعدد أفضل من الإفراد، لأنه منهج النبي وآله وصحبه والقرون الاسلامية الأولى، والرجل هو الذي يقدّر قدرته على التنفيذ واستطاعته في اقامة العدل الشرعي بين نسائه. والطريف أن هؤلاء الباحثين الذي كتبوا في هذا الموضوع والذين اقتبسنا منهم بعض ما كتبوا، من عدة بلدان عربية، مما يؤكد أن منبع الحق في هذه الأمة واحد، مهما اختلف الزمان والمكان.

ورأينا أن نبدأ الكتاب بالقسم الأول الذي يحمل عنوان (الاسلام.. والمرأة) وهو مدخل لملف المرأة في الاسلام، ومناقشة لقضية المرأة وحقوقها بشكل عام بين الإسلام والغرب، وفيه استعراض مقتضب لأهم الشبهات التي أثيرت حول قضية المرأة وحقوقها من قبل الغربيين والمستغربين العلمانيين، ومقارنتها مع ثقافة الغرب وتشريعاته حول المرأة وحقوقها ومبدأ مساواتها بالرجل من النواحي الإنسانية. كما تم استعراض تاريخ المرأة في الشرق والغرب، من خلال تسليط الضوء على تاريخها في أوربا ومعاناتها وصراعها مع الرجل والمجتمع من أجل إنسانيتها وحقوقها،

التي أهدرها الغرب وفق منظوره المادي الأناني، الذي تميزت به حضارته في تاريخه الطويل. ويقارن الكتاب بين حال المرأة في أوربا وحالها في الشرق المسلم، فيبين أن المرأة في الإسلام لا تعاني من ظلم أو قهر أو تمييز، وأن الشعارات الغربية لا تنطبق على المرأة المسلمة، لاختلاف الظروف والتشريعات، ثم يستعرض بعض الشبهات والأمثلة حول تلك الأطروحات ويرد عليها. وسلط الضوء أيضاً على الكثير من المفاهيم التي أشتهرت في الاعلام وطبّل لها دعاة التغريب المادي والانسلاخ من الهوية والحضارة والتراث الأصيل، المرتكز بشكل أساس على حضارة القرآن والتاريخ الإسلامي بشكل عام.

ثم يتبعه القسم الثاني الذي يحمل عنوان (تعدد الزوجات في اطار الضوابط الشرعية) الذي قمنا باقتباسه من مقال السيدة منى عبد الله داود من الخليج العربي وهي تتحدث لأخواتها المسلمات عن تعدد الزوجات وفضله وفوائده للرجل والمرأة والمجتمع، وفق الضوابط الشرعية التي فرضها الله تعالى على المسلمين، نظراً لأن كلام المرأة في هذا المجال أبلغ تأثيراً من الرجل كما تقول الكاتبة نفسها.

ثم يأتي القسم الثالث، تحت عنوان (فضل تعدد الزوجات) ليتكلم عن هذا النوع من الزواج وموقف الشرع منه، باعتباره أفضل من الإفراد، ويذكر فتوى العلماء في ذلك الزواج الكريم، ثم يرد على الشبهات التي أثارها الخصوم على هذا التشريع وتلك السنة المباركة، ويناقش موقف الرافضين والمعارضين ويفند مزاعمهم.

وفي القسم الرابع الذي يحمل عنوان (حكمة الإسلام في تعدد الزوجات)، تم فيه عرض الحكم والفوائد الاجتماعية العديدة وراء هذا التشريع الالهي المنير.

أما القسم الخامس الموسوم (كواكب حول الرسول) فهو مسك الختام، فالرسول ﷺ أسوتنا الحسنة، وأزواجه أمهاتنا وقدوة لنساء المسلمين، فهو يحتوي على نبذة عن سيرة النبي ﷺ الأسرية وحياته مع زوجاته، وشيء من ظلال السيرة النبوية الشريفة حول قضايا المرأة والزواج في حياته ﷺ، كصور الخطبة العديدة والمهور والعرس وتقاليد الزواج الأخرى، كما وردت في السيرة وحياة الآل والأصحاب، وغيرها من الصور والقصص المأثورة في حياة النبي وصحبه الكرام، وزوجاتهم وفي مقدمتهم أمهات المؤمنين أزواج النبي المصطفى ﷺ.

وقد قمنا بجمع ونشر هذه البحوث اللطيفة حول المرأة بشيء من التصرف والحذف والإضافة، لاسيما القسمين الثاني والثالث وثبتنا بعض الهوامش والتعقيبات الضرورية توضيحاً للمبهم وبغية الحصول على الوحدة والتناسق بين أقسام الكتاب.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا الجهد المتواضع خالصاً لوجهه الكريم، ويكتب له القبول لكي ينتفع به الأخوة والأخوات من أبناء الأمة، وكل من ألقى السمع وهو شهيد.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

علاء الدين شمس الدين المدرس
غرة شهر رمضان المبارك
١٤٣٢هـ

الإسلام .. والمرأة

قبل أن نبيِّن حقيقة وضع المرأة في الإسلام، يجدر بنا أن نلم إلمامة سريعة بتاريخ قضية المرأة في أوربا، فهي منبع الفتنة التي فتنت الشرق عن طريق التقليد.

كانت المرأة في أوربا وفي العالم كله هملاً لا يحسب له حساب. كان (العلماء والفلاسفة) يتجادلون في أمرها. هل لها روح أم ليس لها روح؟ وإذا كان لها روح فهل هي روح إنسانية أم حيوانية؟! وعلى فرض أنها ذات روح إنسانية، فهل وضعها الاجتماعي و(الإنساني) بالنسبة للرجل هو وضع الرقيق، أم هو شيء أرفع قليلاً من الرقيق؟!.

وحتى في الفترات القليلة التي تمتعت فيها المرأة بمركز (اجتماعي) مرموق سواء كان في اليونان أو في الإمبراطورية الرومانية، لم يكن ذلك مزية للمرأة كجنس وإنما كان لنساء معدودات، بصفتهم الشخصية، أو لنساء العاصمة بوصفهن زينة للمجالس، وأداة من أدوات الترف التي يحرص الأغنياء والمترفون على إبرازها زهواً وعجباً، ولكنها لم تكن قط موضع الاحترام الحقيقي كمخلوق إنساني جدير بذاته أن يكون له كرامة بصرف النظر عن الشهوات الغريزية التي تحببه لنفس الرجل.

وظل الوضع كذلك في عهود الرق والإقطاع في أوربا في جهالتها تدلل حيناً تدليل الترف والشهوة، وتهمل كالحيوانات التي تأكل وتشرب وتحمل وتلد وتعمل ليل نهار. حتى جاءت الثورة الصناعية في أوربا، فكانت الكارثة التي لم تصب المرأة بشرٍ منها في تاريخها الطويل. لقد كانت الطبيعة الأوربية في جميع عهودها كزّة جاحدة لا تسخو ولا ترتفع إلى مستوى التطوع النبيل الذي لا يكلف جهداً ولا

يفيد مالاً أو نفعاً قريباً أو غير قريب. ولكن الأوضاع الاقتصادية في عهدي الرق والإقطاع، والتكتل الاجتماعي الذي كانا يستلزمانه في البيئة الزراعية، جعلا تكليف الرجل إعالة المرأة هو الأمر الطبيعي الذي تقتضيه الظروف، فضلاً عن إن المرأة كانت تعمل في المنزل في الصناعات البسيطة التي تتيحها البيئة الزراعية، فكانت تدفع ثمن إعالتها بهذا العمل.

ولكن الثورة الصناعية قلبت الأوضاع كلها في الريف والمدينة على السواء فقد حطمت كيان الأسرة وحلت روابطها بتشغيل النساء والأطفال في المصانع فضلاً عن استدراج العمال من بيئتهم الريفية القائمة على التكافل والتعاون، إلى المدينة التي ليس فيها أحدٌ لأحد، ولا يعول أحدٌ أحداً، وإنما يستقل كل إنسان بعمله ومتعته، وحيث يسهل الحصول على المتعة الجنسية من طريقها المحرم، فتهبط الرغبة في الزواج وكفالة الأسرة، أو تتأخر سنوات طويلة على الأقل. وليس همنا هنا استعراض تاريخ أوربا. ولكنا نستعرض العوامل التي أثرت في حياة المرأة فحسب.

إن الثورة الصناعية إذن قد شغلت النساء والأطفال. فحطمت روابط الأسرة وحلت كيانها، ولكن المرأة هي التي دفعت أفدح الثمن من جهدها وكرامتها وحاجاتها السيكولوجية والمادية. فقد نكل الرجل عن إعالتها من ناحية، وفرض عليها أن تعمل لتعول نفسها حتى لو كانت زوجة وإماً! واستغلتها المصانع أسوأ استغلال من ناحية أخرى، فشغلتها ساعات طويلة من العمل، وأعطتها أجراً أقل من الرجل الذي يقوم معها بنفس العمل في المصنع.

ولا نسأل لماذا حدث ذلك، فهكذا هي أوربا، جاحدة كزّة كنود، لا تعترف بالكرامة للإنسان من حيث هو إنسان، ولا تتطوع بالخير حيث تستطيع أن تعمل الشر وهي آمنة.

تلك طبيعتها على مدار التاريخ، في الماضي والحاضر والمستقبل إلى أن يشاء الله لها الهداية والارتفاع.

وإذا كان النساء والأطفال ضعافاً، فما الذي يمنع من استغلالها والقسوة عليها إلى أقصى حد؟ إن الذي يمنع شيء واحد فقط، هو الضمير ومتى كان لأوربا ضمير؟ ومع ذلك فقد وجدت قلوب إنسانية حية لا تطيق الظلم. فهبت تدافع عن المستضعفين من الأطفال. نعم الأطفال. فقط! فراح المصلحون الاجتماعيون ينددون بتشغيلهم في سن مبكرة، وتحميلهم من الأعمال ما لا تطيق بنيتهم الغضة التي لم تستكمل نصيبها من النمو، وضآلة أجورهم بالنسبة للجهد العنيف الذي يبذلونه ونجحت الحملات، فرفعت رويداً رويداً سن التشغيل، ورفعت الأجور وخفضت ساعات العمل.

أما المرأة فلم يكن لها نصير. فنصرة المرأة تحتاج إلى قدر من ارتفاع المشاعر لم تكن تطيقه أوربا المادية! لذلك ظلت في محنتها. تنهك نفسها في العمل مضطرة — لإعالة نفسها — وتتناول أجراً أقل من أجر الرجل، مع اتحاد الإنتاج والجهد المبذول وجاءت الحرب العالمية الأولى. وقتل عشرة ملايين من الشباب الأوربيين والأمريكان. وواجهت المرأة قسوة المحنة بكل بشاعة. فقد وجدت ملايين من النساء بلا عائل. إما لأن العائل قد قتل في الحرب، أو شوه، أو فسدت أعصابه من

الخوف والذعر والغازات السامة الخانقة، وإما لأنه خارج من حبس السنوات الأربع يريد أن يستمتع ويرفه أعصابه، ولا يريد أن يتزوج ويعول أسرة تكلفه جهداً من المال والأعصاب.

ومن جهة أخرى لم تكن هناك أيد عاملة من الرجال تكفي لإعادة تشغيل المصانع لتعمير ما خربته الحرب، فكان حتماً على المرأة أن تعمل وإلا تعرضت للجوع هي ومن تعول من العجائز والأطفال. وكان حتماً عليها كذلك أن تتنازل عن أخلاقها، فقد كانت أخلاقها قيداً حقيقياً يمنع عنها الطعام! إن صاحب المصنع وموظفيه لا يريدون مجرد الأيدي العاملة، فهم يجدون فرصة سانحة، والطير يسقط من نفسه — جائعاً — ليلتقط الحب، فما الذي يمنع من الصيد؟ ألعله الضمير؟ ومادامت قد وجدت (بدافع الضرورة) امرأة تبذل نفسها لتعمل: فلن يتاح العمل إلا للتي تبذل نفسها للراغبين.

ولم تكن المسألة مسألة الجوع إلى طعام فحسب. فالجنس حاجة بشرية طبيعية لابد لها من إشباع. ولم يكن في وسع الفتيات أن يشبعن حاجاتهن الطبيعية ولو تزوج كل من بقي حياً من الرجال، بسبب النقص الهائل الذي حدث في عدد الرجال نتيجة الحرب. ولم تكن عقائد أوربا وديانتها تسمح بالحل الذي وضعه الإسلام لمثل هذه الحالة الاجتماعية، وهو تعدد الزوجات. لذلك لم يكن بد للمرأة من أن تسقط راضية أو كارهة لتحصل على حاجة الطعام وحاجة الجنس، وترضي شهوتها إلى الملابس الفاخرة، وأدوات الزينة، وسائر ما تشتهيه المرأة من أشياء.

وسارت المرأة في طريقها المحتوم، تبذل نفسها للراغبين، وتعمل في المصنع والمتجر؛ وتشبع رغائبها عن هذا الطريق أو ذاك، ولكن قضيتها زادت حدة، فقد استغلت المصانع حاجة المرأة إلى العمل، واستمرت في معاملتها الظالمة التي لا يبررها عقل ولا ضمير، فظلت تمنحها أجراً أقل من أجر الرجل الذي يؤدي نفس العمل في نفس المكان. ولم يكن بد من ثورة جامحة تحطم ظلم أجيال طويلة وقرون.

وماذا بقي للمرأة؟ لقد بذلت نفسها وكبرياءها وأنوثتها، وحرمت من حاجاتها الطبيعية إلى أسرة وأولاد تحس بكيانها فيهم، وتضم حياتهم إلى حياتها فتشعر بالسعادة والامتلاء. أفلا تنال مقابل ذلك (على الأقل) المساواة في الأجر؟ مع الرجل: حقها الطبيعي الذي تقرره أبسط البديهيات؟

ولم يتنازل الرجل الأوربي عن سلطانه بسهولة. أو قل لم يتنازل عن أنانيته التي فطر عليها. وكان لابد من احتدام المعركة، واستخدام جميع الأسلحة الصالحة للعراك. استخدمت المرأة الإضراب والتظاهر، واستخدمت الخطابة في المجتمعات واستخدمت الصحافة. ثم بدا لها أنها لابد من أن تشارك في التشريع لتمنع الظلم من منبعه، فطالبت أولاً بحق الانتخاب، ثم بالحق الذي يلي ذلك بحكم طبائع الأشياء، وهو حق التمثيل في البرلمان. وتعلمت على نفس الطريقة التي يتعلم بها الرجل لأنها صارت تؤدي نفس العمل، وطالبت كنتيجة منطقية لذلك أن تدخل وظائف الدولة كالرجل، ماداما قد أعدا بطريقة واحدة، ونالا دراسة واحدة.

تلك قصة (كفاح المرأة لنيل حقوقها) في أوربا. قصة مسلسلة، كل خطوة فيها لابد أن تؤدي إلى الخطوة التالية رضي الرجل أو كره، بل رضيت المرأة أو

كرهت فهي ذاتها لم تعد تملك أمرها في هذا المجتمع الهابط المنحل الذي أفلت منه الزمام. ومع ذلك كله فقد تعجب حين تعلم أن إنجلترا (أم الديمقراطية) ما تزال إلى هذه اللحظة تمنح المرأة أجراً أقل من أجر الرجل في وظائف الدولة، رغم إن في مجالس العموم نائبات محترمات!.

ونعود إلى وضع المرأة في الإسلام، لنعرف إن كانت ظروفنا التاريخية والجغرافية والاقتصادية والعقيدية والتشريعية، تجعل للمرأة (قضية) تكافح من أجلها، كما كان للمرأة قضية، أم إنها شهوة التقليد الخالصة وعقدة الخواجة، والعبودية الخفية للغرب (التي تجعلنا لا نبصر الأشياء بعيوننا، ولا نراها في حقيقتها) هي التي تملأ الجو بهذا الضجيج الزائف في مؤتمرات النساء.

من البديهيات الإسلامية التي لا تحتاج إلى ذكر ولا إعادة، إن المرأة في عرف الإسلام كائن إنساني، له روح إنسانية من نفس (النوع) الذي منه روح الرجل: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء﴾**[1] فهي إذن الوحدة الكاملة في الأصل والمنشأة والمصير، والمساواة الكاملة في الكيان البشري، تترتب عليها كل الحقوق المتصلة مباشرة بهذا الكيان، لحرمة الدم والعرض والمال، والكرامة التي لا يجوز أن تلمز مواجهة أو تغتاب، ولا يجوز أن يتجسس عليها أو تقتحم الدور... كلها حقوق مشتركة لا تمييز فيها بين جنس وجنس. والأوامر والتشريعات فيها عامة للجميع؟

---

١ سورة النساء/ ١.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾[2] ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً﴾[3] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾[4] (كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه) رواه الشيخان. والجزاء في الآخرة واحد للجنسين: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾[5].

وتحقيق الكيان البشري في الأرض متاح للجنسين: الأهلية للملك والتصرف فيه بجميع أنواع التصرف من رهن وإجارة ووقف وبيع وشراء واستغلال.. الخ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصيِبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾[6]، ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾[7].

ولابد هنا من وقفة عند أمرين بشأن حق الملكية والتصرف والانتفاع. فقد كانت شرائع أوربا تحرم المرأة من كل هذه الحقوق إلى عهد قريب، وتجعل سبيلها

---

٢ سورة الحجرات/ ١١ .

٣ سورة الحجرات/ ١٢.

٤ سورة النور/ ٢٧.

٥ سورة آل عمران/ ١٩٥.

٦ سورة النساء/ ٧.

٧ سورة النساء/ ٣٢.

الوحيد إليها عن طريق الرجل زوجاً كان أم أباً أم ولي أمر. أي إن المرأة الأوربية ظلت أكثر من اثني عشر قرناً بعد الإسلام لا تملك من الحقوق ما أعطاها الإسلام. ثم هي حين ملكتها لم تأخذها سهلة ولا احتفظت بأخلاقها وعرضها وكرامتها، وإنما احتاجت لأن تبذل كل ذلك، وتتحمل العرق والدماء والدموع، لتحصل على شيء مما منحه الإسلام — كعادته — تطوعاً وإنشاءً، لا خضوعاً لضرورة اقتصادية، ولا إذعاناً للصراع الدائر بين البشر، ولكن إحساساً منه بالحق والعدل الأزليين. وتطبيقاً لهما في واقع الأمر لا في عالم المُثل والأحلام.

والأمر الثاني إن الشيوعية خاصة، والغرب عامة يعتبرون الكيان البشري هو الكيان الاقتصادي. ويقولون صراحة أن المرأة لم يكن لها كيان، لأنها لم تكن تملك، أو لم يكن لها حق التصرف فيما تملك، وإنها صارت مخلوقاً آدمياً فقط حين استقلت أوربا اقتصادياً، أو حين صار لها ملك خاص مستقل عن الرجل تستطيع أن تعيش منه وتتصرف فيه.

وبغض النظر عن إنكارنا لتحديد الكيان البشري بهذه الحدود الضيقة، والهبوط به حتى يصبح عرضاً اقتصادياً لا غير، فإننا نوافقهم (من حيث المبدأ) على إن الاستقلال الاقتصادي له أثره في تكوين المشاعر، وتنمية الشعور بالذات.

وهنا يحق للإسلام أن يفتخر بما أعطى المرأة من كيان اقتصادي مستقل، فصارت تملك وتتصرف وتنتفع بشخصيتها مباشرةً بلا وكالة، وتعامل المجتمع بلا وسيط. ولم يكتف الإسلام بتحقيق كيان المرأة في مسألة الملكية، بل حققه في أخطر المسائل المتعلقة بحياتها وهي مسألة الزواج. فلا يجوز أن تتزوج بغير إذنها ولا يتم

العقد حتى تعطي الإذن: (لا تزوج الثيب حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن وإذنها صماتها)[8]، ويصبح العقد باطلاً إذا لم تبد موافقتها عليه.

وقد كانت المرأة (في غير الإسلام) تحتاج إلى سلوك طرق ملتوية لتهرب من زواج لا تريده، لأنها لا تملك شرعاً ولا عرفاً أن ترفض. ولكن الإسلام أعطاها هذا الحق الصريح تستخدمه متى أرادت بل أعطاها أن تخطب لنفسها[9]، وهو آخر ما وصلت إليه أوربا في القرن العشرين، وحسبته انتصاراً هائلاً على التقاليد البالية!.

ويبلغ من تقدير الإسلام لمقومات الكيان البشري (في عصور كان يغشاها الجهل والظلام) أن اعتبر العلم والتعلم ضرورة بشرية، ضرورة لازمة لكل فرد لا لطائفة محدودة من الناس، فقرر للملايين حق التعلم، بل جعله فريضة وركناً من الإيمان بالله على طريقة الإسلام. وهنا كذلك يحق له أن يفخر بأنه أول نظام في التاريخ نظر إلى المرأة على إنها كائن بشري، لا يستكمل مقومات بشريته حتى يتعلم، شأنها شأن الرجل سواء بسواء، فجعل العلم فريضة عليها كما هو فريضة على الرجل، ودعاها أن ترتفع بعقلها، كما ترتفع بجسدها وروحها عن مستوى

---

[8] رواه البخاري ومسلم.

[9] قد يبدو لأول وهلة إن هذا الحق خيال في الظروف الاقتصادية والاجتماعية الحالية وفي جو التقاليد الذي نعيش فيه، ولكن الإسلام ليس مسؤولاً عن كل ما يخالف نظامه أو يعطل أحكامه، وقد استخدمت المرأة هذا الحق في صدر الإسلام، وأقره الرسول وأقره الخلفاء من بعده، فنحن مطالبون اليوم بتنفيذه، وإزالة ما يعترض تنفيذه، سواء كان وضعاً اقتصادياً أو اجتماعياً أو تقليداً غير إسلامي.

الحيوان، بينما ظلت أوربا تنكر هذا الحق على عهد قريب. ولم تستجب إليه إلا خضوعاً للضرورات.

إلى هذا الحد وصل تكريم الإسلام للمرأة. ولا يستطيع أحد مهما أوتي القدرة على التبجح، أن يقول إن فكرة الإسلام في كل هذه الأمور قائمة على إن المرأة مخلوق ثانوي، أو تابع في وجوده لمخلوق آخر، أو دورها في الحياة دور ضئيل لا يؤبه له. فلو كان الأمر كذلك ما عني بتعليمها، والتعليم بالذات مسألة لها دلالة خاصة، وتكفي وحدها (دون حاجة إلى المسائل الأخرى) لتقرير الوضع الحقيقي للمرأة في الإسلام، وهو وضع كريم عند الله وعند الناس.

ولكن الإسلام بعد هذا — بعد تقرير المساواة الكاملة في الإنسانية، والمساواة في جميع الحقوق التي تتصل مباشرة بالكيان البشري المشترك بين الجميع يفرق بين الرجل والمرأة في بعض الحقوق وبعض الواجبات. وهنا الضجة الكبرى التي تثيرها نساء المؤتمرات، ويثيرها معهن كتاب و((مصلحون)) وشباب، نعلم إلى كم يريدون بدعوتهم وجه الإصلاح، وكم يريدون بها أن يجدوا المرأة سهلة التناول في المجتمع وفي الطريق!.

وقبل الدخول في تفاصيل هذه المواضع التي يفرق فيها الإسلام بين الرجل والمرأة، ينبغي أولاً أن نرد المسألة إلى جوهرها الحقيقي إلى أصولها الفسيولوجية والبيولوجية والسيكولوجية: ثم نستعرض بعد ذلك رأي الإسلام.

هل هما جنس واحد أو جنسان؟ وهل هي وظيفة واحدة أم وظيفتان؟ تلك عقدة الموضوع. فإن أرادت نساء المؤتمرات وكتابهن ومصلحوهن وشبابهن أن يقولوا:

ليس بين المرأة والرجل خلاف في التكوين الجسدي والكيان الوجداني ووظائف الحياة البيولوجية، فما عسى أن يرد به عليهم!؟ وإن أقروا بوجود هذا الخلاف فهنالك إذن أساس صالح لمناقشة الموضوع.

(وتبعاً لهذا الاختلاف الحاسم في المهمة والأهداف اختلفت طبيعة الرجل والمرأة، ليواجه كل منهما مطالبه الأساسية، وقد زودته الحياة بكل التيسيرات المكنة، ومنحته التكيف الملائم لوظيفته).

(لذلك لا أرى كيف تستساغ هذه الثرثرة الفارغة عن المساواة الآلية بين الجنسين! إن المساواة في الإنسانية أمر طبيعي ومطلب معقول. فالمرأة والرجل هما شقا الإنسانية، وشقا النفس الواحدة: أما المساواة في وظائف الحياة وطرائقها فكيف يمكن تنفيذها، لو أرادتها كل نساء الأرض وعقدت من أجلها المؤتمرات وأصدرت القرارات). (هل في وسع هذه المؤتمرات وقراراتها الخطيرة أن تبدل طبائع الأشياء فتجعل الرجل يشارك المرأة في الحمل والولادة والرضاعة؟).

(وهل يمكن أن تكون هناك وظيفة بيولوجية من غير تكيف نفسي وجسدي خاص؟، هل اختصاص أحد الجنسين بالحمل والرضاعة لا يستتبعه أن تكون مشاعر هذا الجنس وعواطفه وأفكاره مهيأة بطريقة خاصة لاستقبال هذا الحدث الضخم، والتمشي مع مطالبه الدائمة).

(إن الأمومة بكل ما تحتويه من مشاعر نبيلة، وأعمال رفيعة، وصبر على الجهد المتواصل، ودقة متناهية في الملاحظة وفي الأداء... هي التكيف النفسي

والعصبي والفكري الذي يقابل التكيف الجسدي للحمل والإرضاع. كلاهما متمم للآخر متناسق معه، بحيث يكون شذوذاً عجيباً أن يوجد أحدهما في غيبة الآخر).

(وهذه الرقة اللطيفة في العاطفة، والانفعال السريع في الوجدان، والثورة القوية في المشاعر، التي تجعل الجانب العاطفي، لا الفكري، هو النبع المستعد أبداً بالفيض، المستجاش أبداً بأول لمسة، كل ذلك من مستلزمات الأمومة، لأن مطالب الطفولة لا تحتاج إلى التفكير، الذي قد يسرع أو يبطئ وقد يستجيب أو لا يستجيب، وإنما تحتاج إلى عاطفة مشبوبة لا تفكر، بل تلبي الداعي بلا تراخي ولا إبطاء). (فهذا كله هو الوضع الصحيح للمرأة حيث تلبي وظيفتها الأصلية وهدفها المرسوم) (والرجل إلى جانب آخر مكلف بوظيفة أخرى، ومهيأ لها على طريقة أخرى) (مكلف بصراع الحياة في الخارج. سواء كان الصراع هو مجابهة لوحوش في الغابة، أو قوى الطبيعة في السماء والأرض. أو نظام الحكومة وقوانين الاقتصاد... كل ذلك لاستخلاص القوت، ولحماية ذاته وزوجه وأولاده من العدوان).

(هذه الوظيفة لا تحتاج أن تكون العاطفة هي المنبع المستجاش. بل ذلك يضرها ولا ينفعها، فالعاطفة تتقلب في لحظات من النقيض إلى النقيض.

ولا تصير على اتجاه واحد إلا فترة، تتجه بعدها إلى هدف جديد وهذا يصلح لمطالب الأمومة المتغير المتقلبة، ولكنه لا يصلح لعمل خطة مرسومة تحتاج في تنفيذها إلى الثبات على وضع واحد لفترة طويلة من الوقت، وإن ما يصلح لذلك الفكر فهو بطبيعته أقدر على التدبير وحساب المقدمات والنتائج قبل التنفيذ وهو أبطأ عملاً من العاطفة الجياشة المتفجّرة، وليس المطلوب منه هو السرعة بقدر ما هو

تقدير الاحتمالات والعواقب، وتهيئة أحسن الأساليب للوصول إلى الهدف المنشود وسواء كان المقصود هو صيد فريسة، أو اختراع آلة، أو وضع خطة اقتصادية، أو سياسة حكم، أو إشعال حرب، أو تدبير سلم، فكلها تحتاج إلى إعمال الفكر، ويفسدها تقلب العاطفة). (ولذلك فالرجل في وضعه الصحيح حين يؤدي هدفه الصحيح).

(وهذا يفسر كثيراً من أوجه الخلاف بين الرجل والمرأة. فهو يفسر مثلاً لماذا يستقر الرجل في عمله، ويمنحه الجانب الأكبر من نفسه وتفكيره بينما هو في الميدان العاطفي متنقل كالأطفال. في حين أن المرأة تستقر في علاقاتها العاطفية تجاه الرجل، وحينما تتجه إليه فكأنما كيانها كله يتحرك ويتدبر الخطط ويرتب الملابسات، وهي في هذا الشأن أبعد ما تكون دقة. ترسم أهدافها لمسافات بعيدة وتعمل دائبة على تحقيق أغراضها. بينما هي لا تستقر في العمل، إلا أن يكون فيه ما يلبي جزءاً من طبيعتها الأنثوية كالتمريض أو التدريس أو الحضانة. أما حين تعمل في المتجر فهي تلبي كذلك جزءاً من عاطفتها بحثاً عن الرجل هناك. ولكن هذه الأعمال كلها بديل لا يغني عن الأصل، وهو الحصول على رجل وبيت وأسرة وأولاد. وما أن تعرض الفرصة للوظيفة الأولى حتى تترك المرأة عملها لتهب نفسها لبيتها. إلا أن يحول دون ذلك عائق قهري كحاجتها إلى المال).

(ولكن هذا ليس معناه الفصل الحاسم القاطع بين الجنسين: ولا معناه أن كلاً منهم لا يصلح أية صلاحية لعمل الآخر).

(فالجنسان إذن خليط، وعلى نسب متفاوتة. فإذا وجدت امرأة تصلح للحكم أو القضاء أو حمل الأثقال أو الحرب والقتال... وإذا وجد رجل يصلح للطهي وإدارة البيوت أو الإشراف الدقيق على الأطفال أو الحنان الأنثوي، أو كان سريع التقلب بعواطفه ينتقل في لحظة من النقيض للنقيض: فكل ذلك أمر طبيعي، ونتيجة صحيحة لاختلاط الجنسين في كل جنس. ولكنه خلو من الدلالة المزيفة التي يريد أن يلصقها به شذاذ الآفاق في الغرب المنحل والشرق المتفكك سواء، فالمسألة في وضعها الصحيح ينبغي أن توضع على هذه الصورة، وهل كل هذه الأعمال التي تصلح لها المرأة زائدة على وظيفتها الطبيعية، تغنيها عن طلب البيت والأولاد والأسرة؟ وتغنيها عن طلب الرجل قبل هذا وبعد ذلك ليكون في البيت رجل! بصرف النظر عن شهوة الجنس وجوعة الجسد[١٠]؟.

والآن وقد استعرضنا حقيقة الخلاف بين طبيعة الرجل والمرأة، نعود إلى مواضع التفرقة بينهما في الإسلام.

إن مزية الإسلام الكبرى أنه نظام واقعي، يراعي الفطرة البشرية دائماً ولا يصادمها أو يحيد عن طبيعتها. وهو يدعو الناس لتهذيب طبائعهم والارتفاع بها، ويصل في ذلك إلى نماذج تقرب من الخيالات والأحلام، ولكنه في تهذيبه لا يدعو لتغيير الطبائع، ولا يضع في حسابه أن هذا التغيير ممكن، أو مفيد للحياة البشرية حتى إذا أمكن! وإنما يؤمن بأن أفضل ما تستطيع البشرية أن تصل إليه من

---

١٠ انظر للمزيد من التفصيل: مجموعة كتب محمد قطب، حول المرأة والمجتمع الاسلامي وشبهات الغرب حول الاسلام، وهي: (الإنسان بين المادية والإسلام)، و (شبهات حول الاسلام) و (معركة التقاليد).

الخير، هو ما يجيء متمشياً مع الفطرة بعد تهذيبها والارتفاع بها من مستوى الضرورة إلى مستوى التطوع النبيل.

وهو يسير في مسألة الرجل والمرأة على طريقته الواقعية المدركة لفطرة البشر فيسوي بينهما حيث تكون التسوية هي منطق الفطرة الصحيح، ويفرق بينهما كذلك حيث تكون التفرقة هي منطق الفطرة الصحيح. فلننظر أهم مواضع التفرقة:

تقسيم الإرث ومسألة القوامة.

يقول الإسلام في الإرث: **﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾** ذلك حق ولكنه يجعل الرجل هو المكلف بالإنفاق. ولا يتطلب من المرأة أن تنفق شيئاً من مالها على غير نفسها وزينتها (إلا حيث تكون العائل الوحيد لأسرتها وهي حالات نادرة في ظل النظام الإسلامي، لأن أي عاصب من الرجال مكلّف بالإنفاق ولو تعدت درجته) فأين الظلم الذي يزعمه دعاة المساواة المطلقة؟ إن المسألة مسألة حساب، لا عواطف ولا ادعاء... تأخذ المرأة (كمجموعة) ثلث الثروة الموروثة لتنفقها على نفسها، ويأخذ الرجل ثلثي الثروة لينفقها أولاً على زوجة (أي على امرأة) وثانياً على أسرة وأولاد – فأيهما يصيب أكثر من الآخر بمنطق الحساب والأرقام، وإذا كانت هناك حالات شاذة لرجال ينفقون كل ثرواتهم على أنفسهم ولا يتزوجون ولا يبنون أسرة، فتلك أمثلة نادرة، وإنما الأمر الطبيعي أن ينفق الرجل ثروته على بناء أسرة فيها امرأة بطبيعة الحال هي الزوجة. وهو ينفق عليها لا تطوعاً منه بل تكليفاً. ومهما كانت ثروتها الخاصة فلا يحق له أن يأخذ منها شيئاً البتة إلا بالتراضي الكامل بينهما، وعليه أن ينفق عليها كأنها لا تملك شيئاً، ولها أن

تشكوه إذا امتنع عن الإنفاق، أو قتّر فيه بالنسبة لما يملك، ويحكم لها الشرع بالنفقة أو الانفصال. فهل بقيت بعد ذلك شبهة في القدر الحقيقي الذي تناله المرأة من مجموع الثروة، وهل هو امتياز حقيقي في حساب الاقتصاد أن يكون للرجل مثل حظ الأنثيين وهو مكلّف ما لا تكلّفه الأنثى؟. فضلاً عن وجود حالات أخرى كثيرة قد تكون حصة المرأة أماً أو أختاً أو بنتاً أكثر من الرجل.

على إن هذه السنة إنما تكون في المال الموروث بلا تعب. فهو يقسم حسب أعدل قانون وصلت إليه البشرية اليوم وهو: (لكلٍ حسب حاجته) ومقياس الحاجة هو التكليف المنوط بمن يحملها. أما المال المكتسب فلا تفرقة فيه بين الرجل والمرأة، لا في الأجر على العمل، ولا ريع الأرض... الخ، لأنه يتبع مقياساً آخر هو (المساواة بين الجهد والجزاء)، وإذن فلا ظلم ولا شبهة في ظلم، وليس وضع المسألة أن قيمة المرأة هي نصف قيمة الرجل في حساب الإسلام، كما يفهمها العوام من المسلمين، وكما يقول المشنعون من أعداء الإسلام وقد رأينا بحساب الأرقام أن ذلك غير صحيح. وليس اعتبار شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد دليلاً كذلك على إن المرأة تساوي نصف الرجل. إنما هذا إجراء رُوعيَ فيه توفير كل الضمانات في الشهادة سواء كانت الشهادة لصالح المتهم أو ضده، ولما كانت المرأة بطبيعتها العاطفية المتدفقة السريعة الانفعال، مظنّة أن تتأثر بملابسات القضية (فتضل) عن الحقيقة، رُوعيَ أن تكون معها امرأة أخرى ﴿**أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا**

﴿الأُخْرَى﴾[11]. وقد يكون المشهود له أو عليه امرأة جميلة تثير غيرة الشاهدة، أو قد يكون فتى يثير كوامن الغريزة أو عطف الأمومة. إلى آخر هذه العواطف التي تدفع إلى الضلال بوعي أو بغير وعي. ولكن من النادر جداً حين تحضر امرأتان في مجال واحد، أن تتفقا على تزييف واحد، دون أن تكشف أحداهما خبايا الأخرى فتظهر الحقيقة! على إن شهادة المرأة الواحدة تعتبر مجزية فيما تعد المرأة خبيرة فيه أو مختصة به من شؤون النساء.

أما مسألة القوّامة: فالضرورة تقضي أن يكون هناك قيِّم توكل إليه الإدارة العامة لهذه الشركة القائمة بين الرجل والمرأة، وما ينتج عنها من نسل، وما تستتبعه من تبعات، وقد اهتدى الناس في كل تنظيماتهم إلى أنه لابد من رئيس مسؤول، وإلا ضربت الفوضى أطنابها، وعادت الخسارة على الجميع. وهناك ثلاثة أوضاع يمكن أن تفترض بشأن القوّامة في الأسرة: فإما أن يكون الرجل هو القيِّم، أو تكون المرأة هي القيِّم. أو يكونا معاً قيِّمين. ونستبعد الفرض الثالث منذ البدء، لأن التجربة أثبتت أن وجود رئيسين للعمل الواحد أدعى إلى الإفساد من ترك الأمر فوضى بلا رئيس. والقرآن يقول عن السماء والأرض: **﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾... ﴿إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾** فإذا كان الأمر بين الآلهة المتوهمين فكيف هو بالبشر العاديين؟.

---

١١ انظر آيات الميراث في سورة النساء فللرجل مثل حظ الأنثيين يكون فقط في حالة الأخوة ضمن الأسرة الواحدة كما ورد أعلاه، وفي حالات إرثية أخرى يكون المرجع نصوص أخرى تحدد النسبة بالنصف أو الثلث أو الربع أو السدس...

وعلم النفس يقرر أن الأطفال الذين يتربون في ظل أبوين يتنازعان على السيادة تكون عواطفهم مختلفة وتكثر في نفوسهم العقد والاضطرابات.

بقي الفرضان الأولان، وقبل أن نخوض في بحثهما نسأل هذا السؤال: أيهما أجدر أن تكون وظيفته القوّامة بما فيها من تبعات: الفكر أم العاطفة؟ فإذا كان الجواب البديهي هو الفكر، لأنه هو الذي يدبّر الأمور في غيبة عن الانفعال الحاد الذي كثيراً ما يلتوي بالتفكير فيحيد به عن الطريق المباشر المستقيم، فقد انحلت المسألة دون حاجة إلى جدال كثير. فالرجل بطبيعته المفكرة، وبما هيأته الحياة من قدرة على الصراع واحتمال أعصابه لنتائجه وتبعاته أصلح من المرأة في أمور القوّامة على البيت. بل إن المرأة ذاتها لا تحترم الرجل الذي تسيره فيخضع لرغباتها بل تحتقره بفطرتها ولا تقيم له أي اعتبار. فإذا كان هذا من أثر التربية القديمة التي تترك طابعها في اللاشعور، وتكيف مشاعر المرأة دون وعي منها، فهذه هي المرأة الأمريكية بعد أن ساوت الرجل مساواة كاملة وصار لها كيان ذاتي مستقل؛ عادت فاستعبدت نفسها للرجل. فأصبحت هي التي تغازله وتتلطف له ليرضى! وتتحسس عضلاته المفتولة وصدره العريض ثم تلقي بنفسها بين أحضانه حين تطمئن إلى قوّته بالقياس إلى ضعفها!.

على إن المرأة إذا تطلعت للسيادة في أول عهدها بالزواج وهي فارغة البال من الأولاد وتكاليف تربيتهم التي ترهق البدن والأعصاب، فسرعان، ما تنصرف عنها حين تأتي المشاغل، وهي آتية بطبيعة الحال، فحينذاك لا تجد في رصيدها العصبي والفكري ما تحتمل به مزيداً من التبعات.

وليس مؤدى ذلك أن يستبد الرجل بالمرأة، أو بإدارة البيت، فالرئاسة التي تقابل التبعة لا تنفي المشاورة ولا المعاونة. بل العكس هو الصحيح. فالرئاسة الناجحة هي التي تقوم على التفاهم الكامل والتعاطف المستمر. وكل توجيهات الإسلام تهدف إلى إيجاد هذه الروح داخل الأسرة، وإلى تغليب الحب والتفاهم على النزاع والشقاق. فالقرآن يقول: **﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾**[12] والرسول يقول: (خيركم خيركم لأهله)[13]. فيجعل ميزان الخير في الرجل هو طريقة معاملته لزوجته وهو ميزان صادق الدلالة، فما يسيء رجل معاملة شريكته في الحياة إلا أن تكون نفسه من الداخل منطوية على انحرافات شتى، تفسد معين الخير أو تعطله عن الانطلاق. ولكن العلاقات (الرسمية) في داخل الأسرة موضع شبهات كثيرة تحتاج إلى بيان. بعض هذه الشبهات خاص بالتزامات المرأة نحو الرجل، وبعضها خاص بموضوع الطلاق وموضوع تعدد الزوجات.

وأنا أعتقد أن الزواج مسألة شخصية إلى حد كبير، وأنه ككل تعامل بين شخصين يعتمد قبل كل شيء على المميزات الشخصية والخصائص النفسية والعقلية والجسمية لكل من الطرفين، بحيث يصعب جداً أن يحكمه (قانون) عام فإذا وجدت حالة يسودها الوفاق والوئام فليس من الضروري أن يكون ذلك لأن الزوجين يراعيان (الأصول) الزوجية كل نحو الآخر. وكثيراً ما نسمع عن أزواج لا يشتد بينهم الانسجام والمحبة إلا بعد شجار عنيف قد يتجاوز اليد واللسان! وإذا

---

١٢ سورة النساء/ ١٩.

١٣ رواه الترمذي.

وجدت حالة من الشقاق والخلاف، فليس من الضروري أن يكون السبب غلطة الزوج أو نشوز الزوجة. وكثيراً ما نسمع عن زوجين كل منهما في ذاته مثال كريم للإنسان، ولكن (مزاجهما) لا يتفق وقد يبكيان حسرة على عدم إمكان التفاهم بينهما ولكنهما مع ذلك لا يتفقان.

ورغم ذلك فلابد من قانون عام يحكم أمر الزواج، فلا يستطيع نظام أن يعلن إحاطته الكاملة بحياة البشر دون أن يشرع لهذه المسألة، تشريع يضع (على الأقل) الحدود العامة التي لا ينبغي تجاوزها، ثم يترك التفاعل الشخصي يحكم ما بين هذه الحدود.

وطبيعي أن لا نلجأ الى القانون ونحن متحابون متفاهمون. فالزواج الموفق لا يلجأ إلى نصوص القانون ولا يحتكم إليها. ولا يقول كل من الزوجين لنفسه أن القانون يقتضي كذا فلأصنعه وإلا صرت مخالفاً لأوامره. وإنما ينشأ التوفيق (في الغالب كما قلنا) من التقاء المزاج، من التقاء شطري النفس الواحدة وتعشق أحدهما بالآخر. ينشأ من الحب الذي يجمع القلبين على صورة من الصور، قد لا تكون (عادلة) بالنسبة لأحد الطرفين أو كليهما، وقد تكون مقلوبة بالنسبة للوضع الصحيح، ولكنها مع ذلك مستقرة وافية بالغرض المطلوب. والمطلوب من القانون أن يكون عادلاً لا يحابي أحد الخصمين على حساب الآخر، وأن يحاول بقدر الإمكان أن يشمل محيطاً واسعاً من الحالات، وإن كان في الواقع لا يمكن لأي قانون أن يشمل كل حالة، أو أن يكون تطبيقه الحرفي صالحاً أو عادلاً في ظل بعض الحالات النادرة التي قد نواجهها في الحياة المتعددة الصور والأشكال.

فلننظر في القانون الإسلامي من جهة التزامات الزوجة، لأنها هي موضع الشكوى ومثار الشبهات. ويهمني بشأنها ثلاثة أمور:

هل هي التزامات قاسية في ذاتها؟.

وهل هي التزامات من جانب واحد بلا مقابل؟.

وهل هي التزامات (مؤبَّدة) لا تملك المرأة الفكاك منها حين تريد؟.

تلزم المرأة بثلاثة أمور رئيسية: أن تطيع زوجها في الفراش كلما دعاها إليه، وألا توطئ فراشه من يكره، وأن تحفظ غيبته.

أما المسألة الأولى: فهي في حاجة إلى قدر من الصراحة لتجليتها. والحكمة فيها واضحة. فطبيعة الرجل الجسمانية تجعله في حاجة إلى إفراغ الشحنة الجنسية كلما تجمعت وألحت، لكي يفرغ إلى وظيفته الأخرى من العمل والإنتاج، ومواجهة مشكلات الحياة بأعصاب لا يرهقها القلق والاضطراب. وقد يكون (في فترة الشباب على الأقل) أكثر طلباً للجنس، في عدد المرات فقط، وإن كانت المرأة أعمق منه استجابة للجنس، وأشد اشتغالاً به بمجموع نفسها وجسدها وروحها في معناه الشامل لا في صورته الجسدية فحسب. والزواج منظور فيه بطبيعة الحال إلى تلبية الحاجات الجنسية بجانب المعاني الأخرى الروحية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية، فإذا كان الزوج لا يجد زوجته ملبية حين يلح عليه خاطر الجنس ويشغل أعصابه، فأي شيء يصنع؟ يلجأ إلى الجريمة في خارج البيت؟ لا المجتمع ينبغي أن يسمح، ولا الزوجة ذاتها ترضى أن يتجه زوجها بنفسه أو جسده إلى امرأة أخرى، هي غريمة لها مهما تكن الأوضاع.

ولن يخرج موقف الزوجة إذا دعاها زوجها دون رغبة منها عن حالة من ثلاث:

أن تكون كارهة لزوجها لا تطيق الاتصال به...

أو تكون محبة له ولكنها تكره الاتصال الجنسي عامة وتنفر منه، وتلك حالة سيكولوجية منحرفة ولكنها موجودة في واقع الحياة...

أو تكون محبة له غير نافرة من الاتصال به ولكنها لا تريد الآن.

أما الحالة الأولى: فهي دائمة لا تتعلق بوقت معين، ولا بعمل معين، وهي حالة لا يرجى فيها الإبقاء على الرابطة الزوجية، فيحسن أن تأخذ طريقها الطبيعي إلى الانفصال. والمرأة تملك هذا بأكثر من طريق.

والحالة الثانية: أيضاً دائمة، لا تنشأ من إلحاح الزوج في الطلب، وينبغي علاجها بالاتفاق التام الصريح من مبدأ الأمر، فإما أن يقبل الزوج الامتناع عن تلبية حاجته مهما كلفه ذلك من مشقة، وإما أن تقبل الزوجة تحمل المشقة لأنها تحب زوجها ولا تريد الانفصال عنه، أو ينفصلان (بالمعروف) إذا لم يمكن التوفيق، أو ربما يكون الحل بالزواج من امرأة ثانية. أما القانون فهو يلزم المرأة بالطاعة إذا أصر الزوج، لا تحكماً واعتسافاً ولكن لأن الأمر الطبيعي في الزواج أن يشمل العلاقة الزوجية. ولأن امتناع الزوجة كما قلنا يلجئ الزوج إلى الجريمة الخلقية (أو إلى الزواج بامرأة أخرى). ولكنه لم يلزمها أن تقبل هذا الوضع إذا رأت أنها لا تطيقه وإن حبها لزوجها قد تلاشى بسبب هذا الأمر وانقلب إلى فتور: فهنا تنفصل بسبب الكراهية.

أما الحالة الثالثة: فهي مؤقتة وعلاجها ميسور. إن هذا النفور الوقتي من الاتصال الجنسي قد ينشأ من تعب أو ملل أو انشغال بال. ولكن قدراً من التهيئة النفسية كفيل بإزالته. ولذلك اهتم الرسول بتوجيه نظر الرجال إلى المداعبة اللطيفة والأخذ والعطاء قبل العمل ذاته، أولاً ليرفع هذه العلاقة عن بهيمية الجسد الخالصة ويجعلها ألفة نفس وامتزاج روح، ثم ليزيل مثل هذا الذي قد يسبب النفور.

أما حين تكون الزوجة هي الراغبة والزوج منصرف لسبب من الأسباب وهذا نادر الوقوع في فترة شباب الزوج على الأقل، فالمرأة لا تعدم الوسيلة... ولكنا نقرر أن القانون الذي دعا المرأة لطاعة زوجها: قد اهتم برغبتها وأحلها مكانها الحق، وألزم الزوج بأداء (واجبه الزوجي) إذا طلبت الزوجة. فإذا عجز الزوج وقع الانفصال. وهكذا نرى أن الالتزام واقع من الناحيتين، وليس فيه تعسف للزوجة ولا إهدار لكيانها الشخصي.

والالتزام الثاني هو ألا توطئ الزوجة فراش زوجها من يكره، أي لا تدخل بيته أحداً يكرهه (وليس المقصود الفاحشة فهذه محرمة حتى لو رضي بها الزوج)، وحكمة هذا الالتزام أنه كثيراً ما تنشأ المنازعات في البيت نتيجة دخول أحد بين الزوجين بالتدخل أو الإثارة وسوء التوجيه. فإذا لحظ الزوج ذلك وطلب من زوجته أن تمنع شخصاً معيناً من دخول بيته، فماذا يحدث حين تعارض الزوجة؟ يستمر منبع الفتنة ويستحيل الوفاق. فالإلزام هنا لصالح الشركة القائمة بين الزوجين وما ينتج عنها من أطفال يحتاجون إلى الرعاية وإلى جو من المودة لا يفسده الشجار والشقاق حتى لا ينشأ الأطفال منحرفي النفوس والأفكار.

ولعل لقائل أن يقول: لماذا لا يلزم القانون الزوج أيضاً بألا يدخل بيته من تكرهه زوجته؟ وطبيعي أنه في حالة الحب والمودة، وفي حالة التهذيب والارتفاع من الجانبين، يمكن التفاهم على جميع الأمور فلا تصل إلى درجة الاحتكاك، ولكنا نفترض أن الشقاق واقع والتفاهم مستحيل، ولذلك نلجأ إلى حكم القانون! وهنا يجب أن نذكر أن انفعالات المرأة ليست في غالب الأحوال منطقية، وأن الغيرة الشخصية البحتة (لا المصلحة) قد تكون هي التي تنفر الزوجة من أم الزوج أو أخته أو إحدى قريباته. فإلزام الزوج في هذه الحالة بإطاعة زوجته في إبعاد ما تكره، لن يكون إلزاماً للمصلحة، ولكن لثورة عاطفية قد لا تلبث أن تتحول، أو قد تكون قائمة على غير أساس.

ولست أعني من إن الزوج دائماً على حق فيما يصنع، فقد ينقلب طفلاً في كثير من الحالات، ويولع بالمكايدة. ولا أعني كذلك أن الزوجة دائماً مخطئة. فقد تكون محقة في النفور من شخص بعينه، وقد يكون هذا الشخص من يعملون فعلاً على هدم روابط الزوجية لأي سبب، ولكن القانون موكل بالنسبة، ومتمش مع الفطرة التي تفترض أن الرجل أكثر انقياداً لعقله، والمرأة أكثر انقياداً لانفعالاتها العاطفية ثم إن الباب مفتوح أمام المرأة في كل حالة تجد أنها لا تستطيع الاستمرار على احتمالها، فتنهيها بالانفصال.

أما محافظة الزوجة على عرض زوجها وماله في غيبته فهو التزام طبيعي ومنطقي لا أحسب أحداً يجادل فيه. وهو التزام مشترك يشمل الرجل والمرأة على السواء.

في جميع الحالات التي تخص العلاقة بين الرجل والمرأة في التشريع الإسلامي نستنتج:

أولاً: أن التزامات المرأة نحو الرجل ليست تحكمية، وإنما نظر فيها للمصلحة التي تشمل الزوجة أيضاً بطريق مباشر أو غير مباشر.

ثانياً: أن معظم هذه الالتزامات لها مقابل من نفس النوع عند الزوج. أما الحالات القليلة التي اختص فيها الرجل بلون من السلطة ليس للمرأة، فقد روعي فيها فطرة الرجل والمرأة كليهما، ولم يقصد بها إذلال المرأة ولا إهانتها.

ثالثاً: أنه في مقابل هذه السلطة منحت المرأة الحق في رفضها إذا كانت نفسها لا تقبلها، أو أحست بأن قبولها ظلم لها.

أما الانفصال الذي أشرنا إليه مراراً من قبل، والذي هو طريق المرأة العملي لرفض ما لا تطيق من الالتزامات، فله ثلاث سبل مختلفة:

أن تجعل المرأة عصمتها في يدها، وقد صرح بذلك الشرع وإن كان لا يتمسك به إلا القليلات من النساء، ولكنه حق لها إذا شاءت أن تستخدمه، وإذا وافق الرجل عليه عند الخطبة قبل الزواج، وهو مما لا يقبله الكثير من الرجال. ويمكن أن تطلب الطلاق لأنها كارهة لزوجها غير مطيقة معاشرته. ويبدو أن المحاكم لا تأخذ بهذا المبدأ. ولكنه مبدأ صريح أقره الرسول وعمل به، فهو جزء من التشريع، وشرطه الوحيد أن تتنازل المرأة عن ما تملكه بطريق الزواج، وهو شرط عادل، لأن الزوج حين يطلق زوجته يفقد كل ما ملكه إياها بالزواج، أي إن الطرف

الذي يتسبب في الطلاق (سواء كان الرجل أو المرأة) يحتمل خسارة مادية مقابل فصمه لعرى الزوجية.

والطريق الثالث أن تطلب الطلاق (مع الاحتفاظ بمتاعها وأخذ النفقة) على أساس سوء المعاملة والإضرار. إذا استطاعت أن تثبت ذلك. والمحاكم تشدد في ذلك لعلمها أن كثيراً من القضايا التي تعرض أمامها ترجع إلى المكايدة ولكنها تحكم بالطلاق عند ثبوت الأمر.

تلك أسلحة المرأة مقابل أسلحة الرجل، وهما في النهاية متكافئان.

أما تعدد الزوجات فتشريع إسلامي يهدف إلى حماية المجتمع الإسلامي وسلامته بالدرجة الأولى. **﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً﴾**[14] والمطلوب إذن القسط والعدل[15]، وعلى ذلك يكون الأصل

---

١٤ سورة النساء/ ٣. إن هذه الرخصة في التعدد، مع هذا التحفظ عند خوف العجز عن العدل، والاكتفاء بواحدة في هذه الحالة، أو بما ملكت اليمين... يحسن بيان الحكمة والصلاح فيها. في زمان جعل الناسُ يتعالون فيه على ربِّهم الذي خلقهم، ويدَّعون لأنفسهم بصراً بحياة الإنسان وفطرته ومصلحته فوق بصر خالقهم سبحانه! ويقولون في هذا الأمر وذاك بالهوى والشهوة، وبالجهالة والعمى. كأن ملابسات وضرورات جدَّت اليوم، يدركونها هم ويقدرونها ولم تكن في حساب الله — سبحانه — ولا في تقديره يوم شرَّع للناس هذه الشرائع!!!.

وهي دعوى فيها من الجهالة والعمى، بقدر ما فيها من التبجُّح وسوء الأدب، بقدر ما فيها من الكفر والضلالة! ولكنها تُقال، ولا تجد مَن يردَّ الجهال العُمي المتبجِّحين المتوقحين الكفَّار الضُلَّال عنها! وهم يتبجَّحون على الله وشريعته، ويتطاولون على الله وجلاله، ويتوقَّحون على الله ومنهجه، آمنين سالمين غانمين، مأجورين من الجهات التي يهمها أن تكيد لهذا الدين! وهذه المسألة — مسألة إباحة تعدد الزوجات بذلك التحفظ الذي قرره الإسلام — يُحسن أن تؤخذ بيسر ووضوح وحسم؛ وأن تُعرف الملابسات الحقيقية والواقعية التي تُحيط بها...

روى البخاري — بإسناده — أن غيلان ابن سلمة الثقفي أسلم — وتحته عشرُ نسوة — فقال له النبي ﷺ «اخترْ منهنَّ أربعاً»...

وروى أبو داود — بإسناده — أن عميرة الأسدي قال: أسلمتُ وعندي ثماني نسوة، فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ فقال: «اخترْ منهنَّ أربعاً».

فقد جاء الإسلام إذن، وتحت الرجال عشرُ نسوة أو أكثر أو أقل — بدون حساب ولا قيد — فجاء ليقول للرجال: إنَّ هناك حداً لا يتجاوزه المسلم — وهو أربع — وإنَّ هناك قيداً — وهو إمكان العدل — وإلا فواحدة... أو ما ملكت أيمانُكم...

جاء الإسلام لا ليطلق، ولكن ليحدد، ولا ليترك الأمر لهوى الرجل. ولكن ليقيد التعدد بالعدل والقدرة وإلا امتنعت الرخصة المعطاة!

ولكن لماذا أباح هذه الرخصة. وهذه السنَّة؟

إن الإسلام نظام للإنسان. نظام واقعي إيجابي، يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه، ويتوافق مع واقعه وضروراته، ويتوافق مع ملابسات حياته المتغيِّرة في شتى البقاع وشتى الأزمان وشتى الأحوال.

إنه نظام واقعي إيجابي، يلتقط الإنسان من واقعه الذي هو فيه، ومن موقعه الذي هو عليه، ليرتفع به في المرتقى الصاعد، إلى القمة السامقة. وفي غير إنكار لفطرته أو تنكر؛ وفي غير إغفال لواقعه أو إهمال؛ وفي غير عنف في دفعه أو اعتساف!

إنه نظام لا يقوم على الحذلقة الجوفاء؛ ولا على التطرّف المانع؛ ولا على «المثالية» الفارغة؛ ولا على الأمنيات الحالمة، التي تصطدم بفطرة الإنسان وواقعه وملابسات حياته، ثم تتبخر في الهواء!

وهو نظام يرعى خلق الإنسان، ونظافة المجتمع، فلا يسمح بإنشاء واقع مادي، من شأنه انحلال الخُلق، وتلويث المجتمع، تحت مطارق الضرورة التي تصطدم بذلك الواقع بل يتوخى أن يُنشئ واقعاً يساعد على صيانة الخلق، ونظافة المجتمع، مع أيسر جهد يبذله الفرد ويبذله المجتمع.

فإذا استصحبنا معنا هذه الخصائص الأساسية في النظام الإسلامي، ونحن ننظر إلى مسألة تعدد الزوجات... فماذا نرى؟

نرى... أولاً... أن هناك حالات واقعية في مجتمعات كبيرة — تاريخية وحاضرة — تبدو فيها زيادة عدد النساء الصالحات للزواج، على عدد الرجال الصالحين للزواج... والحد الأعلى لهذا الاختلال الذي يعتري بعض المجتمعات لم يُعرف تاريخياً أنه تجاوز نسبة أربعة إلى واحد. وهو يدور دائماً في حدودها.

فكيف نعالج هذا الواقع، الذي يقع ويتكرر وقوعه، بنسب مختلفة. هذا الواقع الذي لا يجدي فيه الإنكار؟

نعالجه بهزِّ الكتفين؟ أو نتركه يعالج نفسه بنفسه؟ حسب الظروف والمصادفات؟!

إن هز الكتفين لا يحل مشكلةً! كما أن ترك المجتمع يعالج هذا الواقع حسبما اتفق لا يقول به إنسان جاد، يحترم نفسه، ويحترم الجنس البشري!

ولابد إذن من نظام، ولابد إذن من إجراء... ولهذا كان هذا النظام وهذا التشريع...

ثم نرى ثانياً.. في المجتمعات الإنسانية قديماً وحديثاً وبالأمس واليوم والغد، إلى آخر الزمان، واقعاً في حياة الناس، لا سبيل إلى إنكاره كذلك أو تجاهله.

نرى أن فترة الإخصاب في الرجل تمتد إلى سن السبعين أو ما فوقها. بينما هي تقف في المرأة عند سن الخمسين أو حواليها. فهناك في المتوسط عشرون سنة من سني الإخصاب في حياة الرجل لا مقابل لها في حياة المرأة. وما من شك أنَّ من أهداف اختلاف الجنسين ثم التقائهما، امتداد الحياة بالإخصاب والإنسال، وعمران الأرض بالتكاثر والانتشار، فليس مما يتفق مع هذه السنّة الفطرية العامة، أن نكف الحياة عن الانتفاع بفترة الإخصاب الزائدة في الرجال. ولكن مما يتفق مع هذا الواقع الفطري أن يسن التشريع — الموضوع لكافة البيئات في جميع الأزمان والأحوال — هذه الرخصة — لا على سبيل الإلزام الفردي، ولكن على سبيل إيجاد المجال العام الذي يلبي هذا الواقع الفطري، ويسمح للحياة أن تنتفع به عند الاقتضاء... وهو توافق بين واقع الفطرة وبين اتجاه التشريع ملحوظ دائماً في التشريع الإلهي. لا يتوافر عادة في التشريعات البشرية، لأن الملاحظة البشرية القاصرة لا تنتبه له، ولا تدرك جميع الملابسات القريبة والبعيدة، ولا تنظر من جميع الزوايا، ولا تراعي جميع الاحتمالات.

ومن الحالات الواقعية — المرتبطة بالحقيقة السالفة — ما نراه أحياناً من رغبة الزوج في أداء الوظيفة الفطرية، مع رغبة الزوجة عنها — لعائق من السن أو من المرض — مع رغبة الزوجين كليهما في استدامة العشرة الزوجية وكراهية الانفصال — فكيف نواجه مثل هذه الحالات؟

وهكذا حيثما ذهبنا نتأمل الحياة الواقعية بملابساتها العملية، التي لا تصغي للحذلقة، ولا تستجيب للهذر، ولا تستروح للهزل السخيف والتميُّع المنحل في مواضع الجد الصارم... وجدنا مظاهر الحكمة العلوية، في سَن هذه الرخصة، مقيدةً بذلك القيد: ﴿ **فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً**﴾.

فالرخصة تلبي واقع الفطرة، وواقع الحياة، وتحمي المجتمع من الجنوح — تحت ضغط الضرورات — الفطرية والواقعية المتنوعة — إلى الانحلال أو الملال... والقيد يحمي الحياة الزوجية

مـن الفوضـى والاخـتلال، ويحمـي الزوجـة مـن الجـور والظلـم؛ ويحمـي كرامـة المـرأة أن تتعـرض للمهانـة بدون ضرورة ملجئة واحتياط كامل، ويضمن العدل الذي تحتمل معه الضرورة ومقتضياتها المريرة.

والعـدل المطلـوب، هـو العـدل في المعاملـة والنفقـة والمعاشـرة، أمـا العـدل في مشـاعر القلـوب وأحاسـيس النفوس، فلا يطالَب بـه أحـدٌ مـن بـني الإنسـان، لأنـه خـارج عـن إرادة الإنسـان... وهـو العـدل الـذي قـال الله عنـه في الآيـة الأخـرى في هـذه السـورة: **﴿وَلَـن تَسْـتَطِيعُواْ أَن تَعْـدِلُواْ بَـيْنَ النِّسَـاء وَلَـوْ حَرَصْـتُمْ فَـلاَ تَمِيلُـواْ كُـلَّ الْمَيْـلِ فَتَـذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَـةِ﴾**... هـذه الآيـة الـتي يحـاول بعـض النـاس أن يتخـذ منهـا دلـيلاً علـى تحـريم التعـدد! والأمـر لـيس كـذلك. وشـريعة الله ليسـت هازلـة، حتـى تشـرع الأمـر في آيـة، وتحرِّمـه في آيـة. بهـذه الصـورة الـتي تعطـي بـاليمين وتسـلب بالشـمال! فالعـدل المطلـوب في الآيـة الأولى؛ والـذي يـتعين عـدم التعـدد إذا خيـف ألا يتحقـق؛ هـو العـدل في المعاملـة والنفقـة والمعاشـرة، وسـائر الأوضـاع الظـاهرة، بحيـث لا يـنقص إحـدى الزوجـات شـيءٌ منهـا؛ وبحيـث لا تـؤثر واحـدة دون الأخـرى بشـيء منهـا... علـى نحـو مـا كـان الـنبي ﷺ وهـو أرفـع إنسـان عرفَتـهُ البشـرية، يقـوم بـه. في الوقـت الـذي لم يكـن أحـد يجهـل مـن حولـه ولا مـن نسـائه، أنـه يحـب عائشـة — رضـي الله عنهـا — ويؤثرهـا بعاطفـة قلبيـة خاصـة، لا تشـاركها فيهـا غيرهـا... فـالقلوب ليسـت ملكـاً لأصـحابها: إنمـا هـي بـين إصـبعين مـن أصـابع الـرحمن يقلبهـا كيـف يشـاء... وقـد كـان ﷺ يعـرف دينـه ويعـرف قلبـه. فكـان يقـول: «اللـهم هـذا قَسَـمي فيمـا أملـك، فـلا تلمْـني فيمـا تملـك ولا أملـك» [أخرجـه أبـو داود والترمـذي والنسائي].

ونعـود فنكـرر، إن الإسـلام لم يُنشـئ التعـدد، لأنـه بكـل بسـاطة قـانون الفطـرة والطبيعـة البشـرية، وإنما حـدده ورخـص فيـه وقيـده. وإنـه رخـص فيـه لمواجهـة واقعيـات الحيـاة البشـرية، وضـرورات الفطـرة الإنسـانية. هـذه الضـرورات وتلـك الواقعيـات الـتي ذكرنـا بعـض مـا تكشّـف لنـا حتـى الآن منهـا. وقـد يكـون وراءهـا غيرهـا تظهـره أطـوار الحيـاة في أجيـال أخـرى، وفي ظـروف أخـرى كـذلك. كمـا يقـع في كـل تشريع أو توجيـه جـاء بـه هـذا المـنهج الربـاني، وقصـر البشـر في فـترة مـن فـترات التـاريخ، عـن اسـتيعاب كـل مـا وراءه مـن حكمـة ومصـلحة. فالحكمـة والمصـلحة مفترضـتان وواقعتـان في كـل تشـريع إلهـي، سـواء أدركهمـا البشـر أم لم يـدركوهما، في فـترة مـن فـترات التـاريخ الإنسـاني القصـير، عـن طريـق الإدراك البشري المحدود!.

١٥ لقد اشـترط الشـرع الحكيم علـى الرجـل إذا أراد أن يعـدد في الـزواج العـدل والقـدرة، فالآيـة أعـلاه في سـورة النسـاء تشـير إلى العـدل، أمـا القـدرة بكـل صـنوفها الجسـمية والنفسـية والماليـة وغيرهـا، فيشـير إليهـا حـديث البـاءة في قـول الـنبي ﷺ: «مـن اسـتطاع مـنكم البـاءة فليتـزوج ومـن لم يسـتطع فعليـه بالصوم فإنه له وجاء» والباءة هي القدرة على تأمين مستلزمات الزواج المادية والبيولوجية.

في الإسلام العدل أو الاكتفاء بواحدة. ولكن هناك حالات تكون فيها الوحدانية ظلماً لا عدالة فيه. وعند ذلك يلجأ إلى تشريع التعدد مع علمه أن العدالة المطلقة فيه مستحيلة، ليتقي ضرراً أكبر بضرر أخف.

وأهم الحالات التي يحتاج المجتمع فيها إلى هذا التشريع هي حالات الحروب التي تُفني عدداً كبيراً من الشباب، فيختل الميزان ويزيد عدد النساء على عدد الرجال، وعند ذلك يكون تعدد الزوجات مفيد لاتقاء الفساد الخُلقي والفوضى الاجتماعية التي تنشأ لا محالة عن وجود نساء بلا رجال. وقد تعمل المرأة لتعول نفسَها وأهلَها، نعم، ولكن حاجتها الطبيعية إلى الجنس كيف تقضيها؟ وما لم تكن هذه المرأة قدِّيسة أو ملاكاً فهل أمامها سبيل إلا الانحراف عن الطريق السوي؟ ثم حاجتها إلى الأولاد... كيف تشبعها والنسل شهوة بشرية لا ينجو منها أحد، ولكنها لدى المرأة أعمق بكثير منها عند الرجل، إنها كيانها الأصيل الذي لا تشعر بدونه طعم الحياة.

فهل من سبيل إلى قضاء تلك الحاجات كلها بالنسبة للمرأة ذاتها (بصرف النظر عن حاجة المجتمع إلى أخلاق نظيفة تحفظه من التحلل الذي أصاب فرنسا وغيرها فأزالها من قائمة الدول التي لها دور في التاريخ) هل من سبيل إلى ذلك بغير اشتراك أكثر من امرأة في رجل واحد، علانية وبتصريح من القانون، على أن تكون كل منهنَّ أصيلة ذات حقوق متساوية في كل شيء (إلا عواطف القلب المضمرة فهذه ليس لأحد عليها سلطان)؟.

ذلك بعض من أهداف الإسلام من هذا التشريع، وما يقول أحد أن اشتراك امرأة في رجل مع امرأة أخرى فضلاً عن اثنتين أو ثلاث، يريح نفسها ويمنحها السعادة التي تهفو إليها، ولكنها يمكن أن تجد في هذا الاشتراك ضرراً أخفَّ من بقائها عاطلة بلا رجل وبلا راعي أو مسئول يضمن لها العيش بعز واحترام. وشبيه بحالة الحرب كل حالة يختل فيها التوازن لسبب من الأسباب. فالرجال أكثر تعرّضاً لحوادث العمل وحوادث الطريق، وللموت في الأوبئة لأنهم أقل مناعةً بطبيعتهم من النساء. أما حين يتساوى العدد فلا يمكن حسابيًّاً أن يقوم تعدد الزوجات. ولم يحدث في أي وقت إن أراد شاب أن يتزوج فلم يجد، لأن غيره من الرجال قد استولى على نصيبه من النساء!.

وهناك حالات أخرى معروفة لدى الفقهاء يكون تعدد الزوجات فيها ضرورة، منها الطاقة الجنسية الشاذة التي لا تكتفي بواحدة ولا يمكن لصاحبها الصبر عليها. إما أن تأخذ طريقها المشروع إلى زوجة ثانية، أو تتخذ الخليلات في السر وهو وضع لا يسمح المجتمع النظيف بوجوده. ومنها حالات عقم الزوجة. والنسل (كما قلنا) رغبة بشرية عميقة، وهي رغبة رفيعة لا حطة فيها ولا عيب في اشتهائها. وصحيح أنه لا عيب للزوجة العقيم في عقمها، ولكن من يقول إنه من العدالة حرمان الزوج (كرهاً عنه) من حقه المشروع في إنجاب الأطفال؟ فإذا رضيت الزوجة الأولى الاشتراك مع غيرها كان بها، وإلا فأمامها طريق الانفصال إذا كانت لا تطيق، وكذلك حالات المرض الدائم الذي يمنع الاتصال. أو حالات النفور التي لا يملك الإنسان دفعها ولا السيطرة عليها. ويلاحظ في جميع هذه الحالات أن

الزوج يبقى على زوجته الأولى كراهةً منه أن يطلقها، ووفاءً لعشرته الطويلة معها أن تنتهي بالطلاق، وهو شعور كريم. أما إذا كان يمسك بها ضراراً ومكايدة، فذلك حرام عليه عند الله، وسبب موجب للطلاق حين تطلبه الزوجة. ويضاف إلى دوافع التعدد التي ذكرت أعلاه، أن الأمم أحياناً قد تكون بحاجة إلى زيادة نفوسها وإلى التكاثر السريع لسبب ما، فيكون الزواج بأكثر من امرأة من أهم الوسائل المؤثرة لتحقيق هذا الغرض النبيل وتحقيقاً لقول النبي الكريم ﷺ: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثرٌ بكم الأمم» ، كما يمكن إضافة الاستعداد الفطري والبيولوجي للرجل لذلك[١٦]. ويجب أن لا ننسى الأهمية الاجتماعية لوجود أسر مفردة وأخرى متعددة

---

١٦ يؤكد علم النفس الغربي، وفق الخلفية المادية للحضارة الغربية في تفسير السلوك البشري، بأن هناك قسم من الرجال بعد سن الخمسين، يمرّ بمرحلة مراهقة ثانية، تظهر بشكل سلوك عاطفي لا ينسجم مع الفترة والظروف التي يعيشها، وباهتمام متجدد بالنساء وبالرغبة بالزواج، وإقامة علاقات نسائية بالنسبة لبعض المتفلتين من التقاليد المحافظة، مع فيض عاطفي على حساب السلوك المتوازن الذي يتحلى به الرجل، إضافة إلى رغبة متجددة في الإنجاب.. ويعتبرون هذا التحول حالة سلوكية طارئة ومنحرفة، ينبغي تجاوزها وعدم الالتفات إليها... والأجدر أن تفهم هذه الظاهرة في حياة الرجل على إنها صحوة فطرية، تظهر بعد زوال وضعف المؤثرات المضادة لفكرة التعدد، كالتوجيه والضغط الاجتماعي والثقافي للمجتمع المعاصر والمسؤوليات الكبيرة للرجل في مرحلة الشباب، فهي ظاهرة صحية من وجهة النظر البيولوجية والنفسية والاجتماعية، وهي في حالة عدم تعارضها مع الأسرة التي بناها الرجل في عهده السابق، تعتبر دعوة فطرية كامنة لبناء بيت ثاني ناجح أيضاً، لتوفر القدرة النفسية والمادية والخبرة التربوية لوقاية المجتمع من آثار مدمرة عند معارضته للفطرة البشرية التي خلقها الله لحكمة بالغة، وكذلك للمحافظة على التوازن الطبيعي بين الذكور والإناث ضمن إطار مجتمع نظيف ومتعفف، ومن الآثار الخطيرة التي جنتها أوربا بسبب معارضتها للفطرة والأخلاق، ظهور أمراض لم تكن موجودة في السابق، منها مرض الايدز الخبيث وانتشاره في أوربا وأمريكا ثم إلى العالم، إضافة إلى العلل الاجتماعية المزمنة المنتشرة هناك كالإباحة والحيوية والشذوذ والمثلية والتفكك الاجتماعي والأمراض النفسية. فقد ظهر مرض الايدز

وتأثير ذلك على حيوية وتفاعل ذلك المجتمع، وتلك الميزة للمجتمع الإسلامي الفاضل لا يمكن لمسها إلا حين ترى في واقع الحياة، وهي صورة قد تقهقرت في العصر الحالي، بسبب التحدي والإعلام الغربي المضاد والصورة المشوهة التي أشاعها خصوم الإسلام حول مسألة التعدد وغيرها من قضايا المرأة لغرض الهدم والإفساد.

وأخيراً يبدو من ظلال الآية الكريمة: ﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً﴾ [١٧]. إن الأصل في التشريع هو إباحة التعدد حيث تبتدئ الآية بالحد الأدنى وهو المثنى ثم تزيد تصاعدياً وأن الاستثناء هو الاكتفاء بواحدة في حالة الخوف من عدم إمكانية إقامة العدل بين الزوجات على عكس ما هو شائع اليوم والله أعلم. وقد أكد الامام الشافعي وغيره ذلك المفهوم القرآني في وجوب التعدد للمقتدر عليه، فقال الشافعي: اذا وجدت القدرة لدى المسلم وجب التعدد في الزواج [١٨].

في بداية الثمانينات واستطاع خلال عشر سنوات أن يصيب عشرات الملايين من البشر في أوربا وأمريكا، وقد حاول الغرب عن طريق إسرائيل وغيرها نشر هذا المرض في الشرق الإسلامي عامة ومصر خاصة عن طريق بيوت الرذيلة والانحراف والعياذ بالله. قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الروم/ ٣٠).

[١٧] سورة النساء/ ٣.

[١٨] انظر كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، وكتاب الأم للشافعي.

ولذلك كان المجتمع الإسلامي في عصر النبوة هو مجتمع نموذجي في التعدد، وكان النبي الكريم على رأس قائمة الرجال المعددين يليه الخلفاء الراشدين والأنصار وغيرهم من الآل والصحب الكرام، ولم يستثن من تطبيق هذه السنّة الشريفة سوى صحابيين شغلتهما العبادة والتبتل للدين أو الجهاد في سبيل الله وهما عثمان بن مضعون وأبو عبيدة عامر بن الجراح، حتى جاوزت نسبة التعدد ٩٠٪ من المجتمع، بينما كان الموحدون من أصحاب الإفراد في الزواج أقل من ١٠٪، ولهذا كان مجتمع النبوة لا يسمح بوجود امرأة بدون زواج، سواء كانت بكراً أم ثيب، أرملة أم مطلقة، فضلاً عن ظاهرة العوانس من النساء اللاتي تأخر سن الزواج ولم يتاح لهن الزواج، التي كانت نادرة، سوى القواعد من النساء ممن سبقهن أزواجهن إلى الدار الآخرة في سن متأخرة أو اللائي وصلن سنّ اليأس وفقدن الرغبة في الزواج والاقتران بالرجل.

وقفة تأمل مع القرآن واباحته لتعدد الزوجات:

لقد بينت الآية ٣ في سورة النساء حكم جواز التعدد في الزواج من النساء مثنى وثلاث ورباع، رخصة وتحديداً للإطلاق الذي كان سائداً قبل الاسلام، سواءاً عند العرب أم غيرهم من الأمم السابقة. إن الإسلام – كما ذكرنا سلفاً – لم يُنشئ التعدد، لأنه بكل بساطة قانون الفطرة والطبيعة البشرية، وإنما حدده ورخص فيه وقيده. ولقد بين الله سبحانه ارتباط هذا التشريع بالأرامل واليتامى الذين يدفعون الثمن غالياً من جراء اليتم والترمل، الذي يحدث عادة بسبب الفتن والصراعات والحوادث والحروب التي لا نهاية لها ولا حدود لأسبابها ودوافعها النبيلة وغير النبيلة. قال تعالى: **﴿وءآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم انه كان حوباً كبيراً. وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾**[19].

اذن فقد تكون المرآة المقصودة في هذه الآية، أماً لأيتام تركها زوجها أو بنتاً يتيمة تركها أبوها أو أختاً صغيرة تركها أخوها الكبير، بعد وقوع مصيبة الموت على الرجل. فعلى المجتمع في هذه الحالة كفالة اليتيم وحفظ ماله من الضياع ونشأته وتربيته بالطريقة التي يرضاها الله سبحانه، وهي الكفالة الشرعية المعروفة والتي أكد عليها الاسلام في القرآن والسنة. حفظ اليتيم (ذكراً كان أم أنثى) وصيانته من الاهمال والانحراف، الذي لابد أن يصيب العائلة بعد اختفاء راعيها ووليها.

---

١٩ سورة النساء/ ٢– ٣.

فجاء التشريع الحكيم للإصلاح والحفظ والصيانة لبنات المسلمين وأبناءهم وزوجاتهم من الجور والظلم والفساد، فكانت سنّة التعدد احدى الأسس التربوية والتوجيهات الربانية التي لا بد من اتباعها لكفالة الأيتام والأرامل، والتأكيد على أهمية مبدأ زواج المرأة المسلمة المبكر، لكيلا تكون نهباً للهواجس والوساوس والقلوب المريضة. وتلك من الحكم الباهرة والواضحة في القرآن الكريم للدعوة الى تبني مبدأ تعدد الزوجات ونشره وتسهيله بين المسلمين، لضمان مبدأ التكافل الاجتماعي ورعاية المرأة وأبنائها وتكريمها وتكريم زوجها الشهيد، وطمأنته بأن أسرته لن تضيع بعد وفاته أو استشهاده وبعد رحيله عنها.

ملك اليمين بين الأمس واليوم:

أما فكرة ملك اليمين الواردة في الآية أعلاه، فهي في الأساس فكرة وعرف اجتماعي نبع من نظام المجتمع الذي كان سائداً آنذاك. فقد كان الغزو والحروب بين القبائل المتصارعة على القوت والكلأ والنفوذ، بسبب غياب الدولة والنظام القانوني والسياسي في الجزيرة آنذاك، غالباً ما يولّد أسرى وأسيرات من الرجال والنساء. وقد تعارف المجتمع الجاهلي على جعل هؤلاء الأسرى رقيق يملكم الجيش المنتصر من المقاتلين والرجال الذين يقع على عاتقهم الغزو والقتال، ومن بين هؤلاء الأسرى بطبيعة الحال، أن تكون المرأة الأسيرة ملك يمين بيد الرجل[٢٠].

٢٠ أي تكون المرأة الأسيرة أمة وعبدة عند مالكها، وتعد مباحة له لمعاشرتها كالزوجة، دون أن تتمتع بحقوق الزوجة الكاملة لأنها أمة. ويمكن أن نطلق عليها نصف زوجة، ولها نصف حقوقها تقريباً، باعتبارها أسيرة حرب وقاتلت مع العدو، وهددت الأمن والسلام في ذلك البلد

فلما جاء الاسلام أقرّ ذلك العرف مؤقتاً ونظّمه، وجعل له تشريعاً مناسباً بهدف احتوائه وتنظيمه وتحرير الرقيق من الأسرى الذين يقعون في الأسر من جراء الحروب من الرجال والنساء تدريجياً. وقد شجع الاسلام المسلم على عتق الرقاب وتحريرها من طوق الرق والعبودية في الكثير من المواقف والالتزامات الشرعية والاجتماعية، كما هو معروف في كتب الفقه والتراث والتاريخ الاسلامي، وكذلك ما مذكور في العديد من آيات القرآن الكريم والسنّة العطرة. ولقد تم القضاء على ظاهرة الرق والعبيد، مع الزمن والتطور الاجتماعي في القرون الأخيرة، سواء عند المسلمين أم عند غيرهم، ووضعت قوانين وتشريعات دولية للأسير وحقوقه وطرق معاملته، وتم وضع تفاصيل شاملة للتشريعات والأحكام التي تخصه. واستطاعت الحضارة البشرية أخيراً ازالة نظام الرق الطبقي، الذي بقي جاثماً على صدور المستضعفين والفقراء، خلال العصور الوسطى وما بعدها في أوربا والهند وأفريقيا وأمريكا، بينما تضائل في العالم الاسلامي مع الزمن، بسبب التشريعات الحكيمة التي حاصرته وقيدته وحثت على القضاء عليه تدريجياً، عن طريق تحرير الرقاب لكل من يريد التصدق وعمل الخير والتقرب الى الله أو القيام بايفاء النذور أو دفع الكفارة لإثم أو حنث يمين أو افطار متعمد في رمضان أو غيره[21]. ولقد كانت الولايات المتحدة آخر الدول التي قررت التخلي عن نظام الرقيق والعبيد، في أعقاب الحرب العالمية

أو الحدود الفاصلة بين القبائل، فأصبحت تعدّ من الرقيق، وكذلك العرف نفسه ينطبق على الأسرى من الرجال، في عرف المجتمع الجاهلي وفي صدر الاسلام، فيما يسمى بنظام الموالي والعبيد.

٢١ انظر: كتاب شبهات حول الاسلام، فصل الاسلام والرق.

الأولى، لاسيما الرقيق المنتمي الى الجنس الأسود من الأفارقة، والهنود الحمر — سكان أمريكا الأصليين — الذين تعرضوا للابادة الجماعية من قبل الجنس الأبيض الأوربي، الذي غزى القارة الأمريكية بعد اكتشافها قبل خمسة قرون، فأصدرت الولايات المتحدة قرارها النهائي وتشريعها الملزم بالغاء نظام الرق في الولايات المتحدة الأمريكية. وكان ذلك القرار قد أصبح موضع التنفيذ بعد الحرب العالمية الأولى[٢٢].

لقد تخلى الرجل — اذن – عن فكرة ملك اليمين القديمة، والتي كانت متاحة له عرفاً وشرعاً حسب التقليد القديم، بامتلاك النساء من الاماء والجواري، والتي كان معينها الأساسي الحروب والغزوات وعمليات الأسر أثناء القتال. وانتهت ظاهرة سوق الرقيق وتجار النخاسة في عالمنا المعاصر، وان كانت لا تزال آثارها باقية في الغرب وفي أفريقيا وغيرها. وهي التي ازدهرت في مرحلة الاستعمار الغربي للشرق واكتشاف أمريكا قبل بضعة قرون. وأصبحت تجارة الرقيق الأسود والأبيض رائجة من جديد، لاسيما في انكلترا وأمريكا راعيتا الديمقراطية وحقوق الانسان في العصر الحديث!.. وانتهت هذه الظاهرة أيضاً منذ أن ولّى عهد الاستعمار واستعباد الشعوب، على أساس العرق واللون والجنس، فلم تعد هناك حالياً أسيرات يتحولن الى ملك يمين أو الى اماء، يتم بيعهن في سوق النخاسة كما كان في الماضي، ولا وجود الآن لمثل تلك القصص والروايات الشعبية، سواء الحقيقية أم المفتعلة والمضخمة، لامتلاك الجواري والاماء والقيان، ودورهن في

---

٢٢ انظر: كتاب شبهات حول الاسلام، فصل الاسلام والرق.

القصور الفارهة مع المعازف والخمور والموائد العامرة، من قبل الحكام والأمراء والوزراء والتجار والأثرياء، وفي البلاط الملكي والامبراطوري في تراث الشرق الاسلامي القديم، لاسيما في العصر العباسي وما تلاه كما جاء في كتب التراث والتاريخ الغثة والسمينة. ذلك التاريخ الأسطوري في أغلبه الذي سطره الحكواتية والاخباريين في كتب التراث الصفراء وفي قصص ألف ليلة وليلة وبغداد عصر الرشيد وما بعده، وكذلك ما رسخته كتب الاستشراق بغمز ولمز للحياة الفارهة في الشرق في العصور الماضية. ورغم ان تلك الصور المترفة التي سطرت في تاريخنا بحاجة الى تدقيق وتصويب، للوقوف على الواقع الاجتماعي والسياسي لتلك العصور، فان الذي لا مراء فيه أن لا وجود لتلك الحياة الباذخة اليوم، كتلك التي تعتمد الجواري والغلمان والشعر الماجن والكأس والرقص والغناء المتهتك الرخيص، الا ما ندر في بعض الزوايا المظلمة في قصور بعض المترفين والفاسقين هنا وهناك، سواء في الشرق أم في الغرب. وهي من صور البذخ والاسراف الشخصي للطغاة والأغنياء المترفين الفاسدين، بحسب ميل الانسان الى الترف والأنس والمتعة الحسية.

فلا ملك يمين ولا جواري ولا عبيد اليوم. بل حتى تعدد الزوجات قد تقلّص اليوم وضمُر عبر الزمن، وذلك بفعل الاعلام المضاد والرافض له، بحجة كرامة المرأة وحفظ حقوقها. وكأن كرامة المرأة تُجرح بالتعدد والزواج الشرعي الشريف، ولا تجرح بالظلم والحرمان أو الامتهان والسقوط والانحدار. وذلك هو حكم الشيطان وما يسعى له منذ أن وُجد الانسان على الأرض.

ولكن الأغرب من ذلك في عالم المرأة والواقع المعاصر، هو أن هذا القانون الاجتماعي العتيق، قانون ملك اليمين ربما قد انعكس اليوم، بحيث لم يكتفي المشرع العلماني الغربي، بانسحاب الرجل من ميدان تملك النساء، الذي ساد فيما مضى وفق النزعة الجاهلية، التي كانت تحكم العرف العربي وغير العربي في فجر الاسلام، والتي هذبها الاسلام وجعل لها مخارج اجتماعية لمعالجتها والتخلص منها عبر الزمن، بل تعداه الى ما هو معاكس له، وهو ما يقع في الطرف الثاني لذلك القانون، تماماً مثلما أقرّ العالم الغربي اليوم الشذوذ الجنسي والمثلية وشرع لها تشريع خاص في أمريكا وربما سيكون ذلك التشريع الشاذ في أوربا فيما بعد، في نكوص عن الفطرة منقطع النظير، وليس له سابقة في التاريخ البشري، حتى عند القبائل البدائية الهمجية.

لقد أصبح شائعاً وسائداً اليوم، لدى البعض من النساء المتأثرات بالإعلام الغربي العلماني، مبدأ المساواة المطلقة والندية الكاملة مع الرجل، في ظل مفهوم الصراع والتحدي للرجل في داخل محيط الأسرة الواحدة، تجسيداً لمفهوم المساواة المطلقة بين الجنسين. ولعل الأغرب والأمرّ من ذلك أنه قد أصبح شائعاً في المجتمع الحاضر، شعور مريض عند بعض النساء الرافضات للحق والفطرة السوية، شعور أناني غير معلن عنه، يتمثل بحقهن الطبيعي بامتلاك الرجل (الزوج)، وكأنه جزء من ممتلكاتها الأخرى، حتى باتت بعض النساء تتساءل علانية: كيف يجرؤ ذلك الزوج على التفكير بالتعدد وأن يتزوج من امرأة أخرى غيرها؟. وقد ترسّخ في وعي زوجته أنها تملكه وتدير حياته الاجتماعية وتجعله يدور في فلكها قهراً، انها تعتبر

ذلك جريمة كبرى ينبغي أن توؤد في لحظة التفكير بها والاستعداد لتنفيذها. ويبدو أن ذلك الشعور الغريب المناقض للفطرة السوية، هو من بين الأسباب العديدة التي أدّت الى نمو ظاهرة الزواج المنفرد وعدم التجرؤ لطرح سنة التعدد ومناقشتها، والمساهمة الجادة في ايجاد حل لمشكلة كثرة الأرامل والنساء اللآتي لا يجدن فرصة للزواج من الرجل سواء أكان عازباً أم متزوجاً. وكذلك جبن الرجل وتخوف الكثير من الرجال في الاقدام على تنفيذ سنة التعدد في الزوجات، الا سراً وفي خفاء لا مبرر له. وأصبح للزواج مسميات غريبة وعرجاء، كزواج المسيار والزواج العرفي والزواج فريند وغيرها من المسميات المعاصرة، بسبب الضغط الاجتماعي والاعلامي على الزواج عموماً والتكاليف الباهضة والعقاب الكبيرة أمام الرجل للاقدام عليه. وكذلك الهجوم الشرس على تنفيذ سنة تعدد الزوجات الشرعي الكريم. ان ذلك الوضع الاجتماعي أدى أيضاً عزوف الرجل عن مجرد التفكير في الأمر، والى منع الرجال من تنفيذ هذه السنّة الطيبة. ونحن نعلم أن التعدد هو في حقيقته مسؤولية ثقيلة وكبيرة على الرجل الرشيد، ولا يقوى عليه الا القوي الأمين من الرجال، وان الإفراد هو الحالة الأسهل والأخف على نفس الرجل. وربما كان الأخف من ذلك والذي لا يجرّ معه أية تبعات اقتصادية أو مسؤوليات اجتماعية، هو بقاء الرجل أعزباً لأطول فترة ممكنة وتأخير سن الزواج للشباب، والاكتفاء بقضاء الوطر والتنقل بين الخليلات وبائعات الهوى لمن يتصف بضعف الدين والأخلاق. وهذا هو ما يريده الاعلام الموجه ضد المرأة والمجتمع، لتخريب الأسرة وتهديم المجتمع وتحطيم روابطه ومحاولة فصم عراه الوثيقة.

ان أنانية بعض النساء تكمن وراء عدم القبول بزواج الرجل بأكثر من امرأة، باعتبار الزوج ملكاً لها فحسب أو أسيراً لرؤيتها ومنهجها في الحياة، ولا يحق له مجرد التفكير بما هو أبعد من ذلك، وينبغي ألا يتاح له في العرف والقانون، أن يفكر في شيء مثل ذلك. وربما تسمح له الزوجة المتحررة في ممارسة الرذيلة وطرق أبواب الحرام مع نساء عديدات، دون أن تسمح له أن يعقر ناقة الزوجية وقداستها المهانة بلوثة التعدد وادخال زوجة شرعية على حياتها المغلقة، حتى ولو أدى ذلك الى فناء البشرية وفسادها وتردي الأخلاق وانتشار الفسق والفجور والحيونة في المجتمع، ومحاربة شرع الله وسنة رسوله في تشريعه الكريم لبناء المجتمع الفاضل العفيف.

تفكيك الأسرة وتهميش دور الأب في ظل حضارة العولمة:

حدثني أحد الأصدقاء الثقاة من الاعلاميين العرب الساكنين في لندن منذ عشرين عاماً تقريباً[٢٣]، بأن هناك ظاهرة بدأت تتنامى في الغرب، حتى بين النساء العربيات فضلاً عن النساء الغربيات، تلك هي امتهان الرجل ومحاصرته وانهاء دوره الأسري والأبوي من النواحي الاجتماعية والتربوية والقانونية، حتى تحوّل الى مجرد ذكر في أسرته، ليس له فائدة سوى التلقيح والمساهمة في عملية انجاب الأطفال، واذا ما انتهى دوره يهمل ويهمّش ويتضائل دوره، وربما كان مصيره الاجتماعي أن يرمى خارج البيت كالقطط والكلاب السائبة، لكي تنتقل المرأة والأم المسكينة بعده الى أحضان رجل آخر، تجد فيه ضالتها وتفرغ غريزتها. وبذلك كثرت ظاهرة الأسر الأمومية، التي هي عبارة عن امرأة مع ابناءها، الذين جمعتهم من آباء شرعيين وغير شرعيين في بيت واحد، بعد أن يُترك أو يطرد آباؤهم من البيت، فيتسكعون في عزلتهم أو يعيشون أغلب حياتهم المهملة في حانات الخمر والميسر، في تفكك أسري وضياع تام ليس له نظير في تاريخ البشر. ورغم تلك المأساة التي يعاني منها المجتمع الغربي نساءاً ورجالاً وأطفالاً، لا يجد ذلك المجتمع المتجه نحو الهاوية والتيه الحقيقي، من يسمع له ولا من يصغي لهؤلاء الرجال الذين هم في مقدمة من يدفع الثمن، ولا لصوتهم واستغاثتهم وحرمانهم من أبنائهم الذين أنجبوهم. والأدهى والأمرّ من ذلك أن قوانين الأحول الشخصية الجديدة في الغرب والتي تنظم أحوال الأسرة وتحكم في الخلافات الناشئة بين أفرادها،

---

٢٣ تحديداً منذ عام ١٩٩٣م.

أصبحت تدعم المرأة وسلطتها في كل ذلك بشكل منحاز وغير مبرر، باسم حقوق المرأة والمساواة والضمان الاجتماعي للأم والأسرة والأبناء، حتى تحول الرجل في الغرب الى ضحية حقيقية، ليس له مكان أو دور طبيعي في المجتمع، وتخربت الأسر والمجتمعات في الغرب، الا من عصم الله من الأسر المحافظة على التقاليد الأصيلة، وهم القلة الباقية المتمسكة بالفطرة والدور الأخلاقي السوي لانقاذ المجتمع من المخطط الشيطاني لتدمير الأسرة، فضلاً عن ظواهر اللقطاء وبائعات الهوى والشواذ والمثليين. وقد أصبحت المرأة العربية هناك من خلال تأثر بعض النساء العربيات بتلك المفاهيم الاجتماعية الهدامة – والكلام لا زال لصديقي المتحدث – تتابع تلك القوانين والتشريعات باهتمام وشغف، وهي قوانين صارمة في تعاملها مع الأب أو الزوج المتدخل في شؤون الأسرة وتصرّف أبنائه ورغباتهم وميولهم الاجتماعية، والتي تحجّم دور الأب وقدرته على التوجيه والتربية الصحيحة لأبنائه. وقد تطرده الزوجة من البيت اذا لزم الامر ولم يخضع لإرادتها، وقد تتدخل الشرطة فتزجره وتضربه وتسجنه في حالات عديدة، يعرفها من عاش في الغرب لبضع سنين وقضى فيها جزءاً من حياته.

ان رياح التغيير بدأت تزحف على عالمنا العربي، مع تداعيات العولمة والتغيير غير الهادف الذي يريده البعض، ومن خلال التوجيه العولمي وأدواته الأخطبوطية المتعددة، عبر بعض القنوات الفضائية المجهزة بالامكانيات والقدرات المؤثرة ومواقع الانترنت الشهيرة، المعدة بعناية ودقّة، لإحداث الفوضى الخلاقة والفتن المستطيرة في المجتمع والسياسة والاقتصاد، لخدمة الجهات الممولة لها

ولبرامجها البعيدة المدى. ولذلك فان هذا المرض الاجتماعي بدأ يزحف على مجتمعاتنا الشرقية، بعد التمهيد له من قبل أرباب السياسة والاجتماع من دهاة الغرب، واعداد التشريعات اللازمة له تدريجياً، باسم الحرية والتحرر والتطور والاستنارة والتغيير (غير الهادف والمنضبط) وباسم الديمقراطية وحقوق المرأة ومساواتها مع الرجل، وغيرها من المفاهيم الوافدة على مجتمعاتنا العربية والاسلامية. ولكن الله سبحانه يدافع عن الذين آمنوا ويدافع عن الدين والحق والفطرة، ولابد لنا من التسلح بالثقة والأمل بالله وقدرته، ومواجهة ذلك الافساد العالمي الذي يقوده الغرب بامكاناته الهائلة، بالاصلاح الرباني الرشيد تحت راية القرآن وهديه القويم، والتزود بالايمان والتقوى والفطرة السوية والأخلاق الكامنة في مجتمعاتنا العريقة لمواجهة كيد الشيطان، ان كيد الشيطان كان ضعيفاً مهما حاول أولياؤه نصرته وتزويقه وتزييفه.

أقوال علماء ومفكري الغرب في موضوع تعدد الزوجات:

يتصور الكثير منا أن الغرب يرفض مبدأ تعدد الزوجات ولا يتساهل في قبوله زتصور امكانية تطبيقه في المجتمع الغربي، بسبب النزعة الفردية والثقافة الموروثة، التي اكتسبها في تاريخه الطويل سواء من الحضارة الرومانية أم من الحضارة المسيحية، التي ترفض التعدد وتعتبره غريباً عن تراثها وتاريخها، رغم أن الغرب قد مارس التعدد المحرم، والعلاقات النسائية المحرمة في تاريخه الطويل وفي واقعه الحاضر، فهذا ميتران رئيس فرنسا، حين مات كان موكب تشييعه في باريس يضم زوجته وعشيقته معاً، ولم يعترض أحد المشيعين على تلك الظاهرة الغريبة الملفتة للنظر، لاسيما في عرفنا العربي الاسلامي. ان فضائح الرؤساء والقادة الغربيين، فيما يخص العلاقات النسائية السرية والخليلات والعشيقات مشهورة ولا تحتاج الى متابعة واستعراض، آخرها فضيحة الرئيس الأمريكي كلنتون مع عشيقته مونيكا وكذلك فضيحة الرئيس الفرنسي الحالي، فضلاً عن قصص المشاهير والقادة والسياسيين في الغرب، التي سودت صفحات الصحف والانترنت والفضائيات وبقية وسائل الاعلام، فضلاً عن ظاهرة البوي فريند والكير فريند، التي تعد علاقة طبيعية ومقبولة اجتماعياً، وتتضمن المعاشرة بين الرجل والمرأة في بيت واحد قبل الشروع في الزواج الرسمي بفترة قد تمتد لسنوات، وقد تنتج أطفالاً أيضاً. وكذلك بائعات الهوى وامتهان البغاء الرسمي بسبب الحاجة أو الرغبة والحرية الشخصية، وغيرها من الظواهر الاجتماعية والجنسية المنتشرة في أوربا وأمريكا بشكل علني ومدعوم ومحمي قانوناً من دول الغرب ذاتها. بل وصل الأمر الى دعم الشذوذ

الجنسي والمثلية[٢٤] وجعله ظاهرة مقبولة اجتماعياً وقانونياً، فضلاً عن ظاهرة اللقطاء والبغاء الرسمي والخيانة الزوجية، التي وصلت نسبتها الى نسبة مخيفة في المجتمع الغربي. أما الطلاق فقد بات شائعاً ومشاعاً ومنتشراً بدرجة غير طبيعية، رغم كونه من المحرمات في الدين المسيحي. ونحن لا ننفي وجود تلك الظواهر الاجتماعية السيئة في المجتمع العربي والاسلامي، بل نقول ان الاختلاف هو في النسبة، فالغرب كان قد وصل الى أقصى مدى للتفسخ الاجتماعي والتفكك الأسري، ونحن لا نزال في عافية وأن هذه الأمراض لازالت في بدايتها عندنا. وان كنا نسير على خطى الغرب وفي برنامج وخطة مدعومة ومبرمجة من جهات خفية تريد الشر بنا وبمجتمعاتنا، في خطة متكاملة لافساد المجتمع البشري في كل مكان، وذلك هو الهدف الأكبر للشيطان وأذنابه. ولكن المجتمع العربي لا زال فيه الخير الكثير والفطرة السوية والتطلع الى مكارم الأخلاق، بالرغم من شدة الهجمة المنظمة على العالم العربي وتفاقمها في العقود الأخيرة وبشتى صنوفها، من الغزو الفكري والاقتصادي والعسكري وغيره، بحيث أصبحت حصوننا مهددة من داخلها، وأصبح البرنامج ينفذ في الغالب بأيدي وأقلام عربية واسلامية، ضمن التوجه الاستعماري الغربي بشكله السابق والحالي.

لكل ذلك فان القاريء قد لا يتوقع من مفكري الغري وحكمائه من يقول كلمة الحق المنصفة في موضوع التعدد، نظراً لبعد هذه الثقافة عن المنهج الغربي. ولكن نحن نعلم أن الفطرة الانسانية السوية واحدة عند البشر، سواء في الشرق أم الغرب، وأن

---

٢٤ وهو زواج الرجل للرجل والمرأة للمرأة، وقد أقر الكونكرس الأمريكي هذا التشريع مؤخراً، بعد أن فاز الحزب الديمقراطي في الانتخابات الأمريكية الأخيرة.

الحق والخير واحد، وان دعوة الاصلاح لا يختص بها شعب دون شعب أو أمة دون أمة، ففي الغرب الكثير من المفكرين والحكماء ممن اكتووا بنار الفساد والظلم والزيف والمادة والفردية وكل الأمراض الاجتماعية التي نعاني منها. وقد استطاع الغرب أن يقوّم الكثير من أوضاعه ويعالج الكثير من علله بالنظرة العقلية الفاحصة، وبالتجربة العلمية، وباكتشاف العلل ومحاولة تجاوزها بعد الاعتراف بها وبمخاطرها وتشخيص عيوبها. ولذلك فاننا سنجد في السطور التالية ما يثلج القلب ويقرّ العين ويوحي بالثقة، بأن الانسان يستطيع تشخيص الخلل وتجاوز العلل والعيوب والأمراض، حتى اذا كانت تلك العيوب ليست مما هو شائع في الثقافة التقليدية لهذا البلد أو ذاك.

يقول المفكر الفرنسي المعروف (غوستاف لوبون): (إن مبدأ تعدد الزوجات الشرقي نظام طيِّب، لرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تقول به، ويزيد الأسرة ارتباطاً، ويمنح المرأة احتراماً وسعادةً لا تراها في أوربا)[٢٥].

ويقول أيضاً: (ولستُ أدري على أي قاعدة يبني الأوربيون حكمهم بانحطاط ذلك النظام (نظام تعدد الزوجات) عن نظام التفرّد عند الأوربيين المشوب بالكذب والنفاق؟ على حين أرى أن هناك أسباباً تحملني على إيثار نظام التعدد على ما سواه، وليس عجيباً بعد ذلك أن نرى الشرقيين الذين ينتجعون إلينا ويتنقّلون بين مدائننا يعانون من قسوتنا في الحكم على نظام تعدد الزوجات)[٢٦].

---

٢٥ حضارة العرب، تأليف غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر.

٢٦ محمد رسول الله، تأليف محمد رشيد رضا.

وقال (إيتان دينيه): (إن نظرية عدم التعدد وهي النظرية المأخوذة في المسيحية ظاهرة تنطوي تحتها سيئات عديدة ظهرت على الأخص في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء — تلك هي ١. الدعارة، ٢. العوانس من النساء، ٣. الأبناء غير الشرعيين)[٢٧].

ونشرت جريدة (لاغوس ويكلي وكورد) بتاريخ ١٩٩٠/٤/٢٠م نقلاً عن جريدة (لندن تروث) مقالاً لإحدى السيدات الإنجليزيات جاء فيه: (لقد كثرت الشاردات من بناتنا وعمَّ البلاء، وقلَّ الباحثون عن أسباب ذلك، وإذا كنت امرأة تراني أنظر إلى هاتيك البنات وقلبي يتقطَّع شفقة عليهنَّ وحزناً، وماذا يفيدهنَّ بثِّي وحزني وإن شاركني في ذلك الناس جميعاً؟! لا فائدة إلا في العمل بما ينفع هذه الحالة الرجسة، ولله درّ العالم الفاضل (توماس) فإنه رأى الداءَ، ووصفَ له الدواء الكامل الشفاء وهو (الإباحة للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة) وبهذه الوساطة يزول البلاء ولا محالة، وتصبح بناتنا ربَّات بيوت، فالبلاء كل البلاء في إجبار الرجل الأوربي على الاكتفاء بامرأة واحدة)[٢٨].

(إنَّ هذا التحديد بواحدة هو الذي جعل بناتنا شوارد، وقذف بهنَّ إلى التماس إهمال الرجل، ولابد من تفاقم الشر إذا لم يُبَح للرجل التزوج بأكثر من

---

٢٧ أشعة خاصة بنور الإسلام، تأليف إيتان دينيه (مفكر فرنسي شهير).

٢٨ إن تشريع تعدد الزوجات موجود عند اليهود إضافةً إلى المسلمين، وقد حرمه النصارى دون الاعتماد على أساس ديني سوى عدم الانصياع لتعاليم التوراة (العهد القديم) التي ورثوها من اليهود. (المعتقدات القديمة والتوراة، د. علي الشوك، ص٢٠٥).

واحدة)[29]. (أي ظن وحرص يحيط بعدد الرجال المتزوجين الذين لهم أولاد غير شرعيين؟ أصبحوا كَلاً وعاراً وعالةً على المجتمع فلو كان تعدد الزوجات مباحاً لما حاق بأولئك الأولاد وأمهاتهم ما هم فيه من العذاب الهون. ولسلِمَ عرضهنَّ وعرض أولادهنَّ... إن إباحة تعدد الزوجات تجعل كل امرأة ربة بيت وأم أولاد شرعيين)[30].

---

٢٩ إن مبدأ التعدد هو مبدأ اجتماعي أصيل سنَّه الأنبياء منذ عهد إبراهيم عليه السلام، ويتجلى ذلك في قصص العهد القديم (التوراة) حيث تزوج إبراهيم بأربع ويعقوب باثنتان وكذلك عدَّد النبي داود وابنه سليمان وغيرهم عليهم السلام، فالقول بأن التعدد تشريع إسلامي فقط مردود بنص التوراة والتراث اليهودي والمسيحي. وعليه فالتعدد هو مبدأ الأنبياء وهو من مقومات كمال الرجولة والفحولة رفضه من رفضه وقبله من قبله، فلا يحق لأحد من أتباع الديانات السماوية نقده أو تجريح من يطبقه، لأنه بذلك سيجرح في أنبيائه ورموزه، وهو ما أكدته الكتب السماوية (التوراة والزبور والإنجيل والقرآن).

٣٠ جريدة (لاغوس) نقلاً عن جريدة (لندن تروث).

فطرة الانسان وطبيعة الرجل والمرأة:

لا شك أن الرجل والمرأة مخلوقان متساويان من حيث النفس الانسانية التي خلقها الله. فلقد خلق الله الانسان من نفس واحدة وهي نفس آدم أبو البشر، وخلق منها زوجها وهي حواء أم البشرية جمعاء عليهما السلام. فهما نصفا المجتمع البشري المتكاملان والمتداخلان والمتعاونان، على خلافة الأرض واعمارها وبناء الحضارة البشرية. قال تعالى: **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءا﴾** [٣١].

لذلك فان المساواة بين الرجل والمرأة من الناحية الانسانية ومن ناحية الحقوق والواجبات أمر بديهي لا مراء فيه. ولكن في نفس الوقت لا يوجد ما يبرر تحويل هذه الفكرة البديهية، الى فكرة المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة في كل شيء، فان ذلك أمر واضح البطلان. لأن الله تعالى الذي خلق الرجل والمرأة، قد جعل لكل منهما دوراً محدداً في الحياة يختلف عن الآخر بل ويتكامل معه أيضاً، ذلك لتستقيم الحياة ويؤدي الانسان دوره فيها. فالذكورة للرجال والأنوثة للنساء وهو أمر طبيعي، وذلك يستتبع أن يكون للمرأة دوراً مغايراً لدور الرجل، فالأمومة لها خصائصها وتوابعها بما يميزها عن الأبوة وتوابعها. فالمرأة صانعة الجيل وراعيته ومربيته منذ نعومة أظافر أبنائها، يساعدها في ذلك ويكمل دورها الرجل الرشيد المسؤول عنها وعن أبنائها. وهو الذي يهيء لها ما لا

---

٣١ سورة النساء/ ١.

تستطع توفيره بنفسها في بحر الحياة المتعدد التكاليف والصعاب. قال نبي الرحمة: كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته.. فالمرأة راعيةٌ في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها. وتلك من البديهيات التي حاول بعض المغرضين أن يجادلوا فيها، بما يشكك في دور الرجل والمرأة في القيام بأعباء الأسرة ورعايتها لغاية في أنفسهم، وكانوا في أحيان كثيرة يجادلون بطريقة (الحق الذي يراد به باطل) فاستعطفوا بتلك الوسائل المخادعة، بعض النساء البريئات والرجال المندفعين والأطفال السذج ورفعوا شعار (الدفاع عن حقوق المرأة ومساواتها مع الرجل)، وباتوا يدحضون كل قانون وتشريع يقوم بارساء قواعد الأسرة ورعاية المجتمع برجاله ونسائه وأطفاله وأيتامه وأرامله وشيوخه ومسنيه. وهم من المغرضين الفاسدين الذين ظل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.. واستغلوا الاعلام ودوره وهيمنتهم عليه وعلى وسائله المختلفة لبث سمومهم المتنوعة فيه، واستثمروا عاطفة المرأة المندفعة وسخروا المال الحرام واستغلوا الغرائز العمياء والتعصب المقيت، لصالح أفكارهم ومفاهيمهم التي ابتدعوها ووضعوها لبناء المجتمع على ثوابت وأصول جديدة، ما أنزل الله بها من سلطان، وليس لها أصل ولا أساس من وحي رباني وتوجيه سماوي، سوى الهوى والمصالح الهابطة للقلة القليلة المهيمنة على المقدرات والثروات في الأرض من أصحاب الجاه والسلطان لغاية في أنفسهم، ولكي يبقى المال المتراكم من السحت والربا والاحتكار دُولة بين الأغنياء منهم، وبيد طغمة ترليونية محدودة ولعوائل معدودة. فأنشؤا المنظمات والجمعيات والمؤسسات وبنوا المدارس والمعاهد وأقاموا المؤتمرات والندوات، لأجل ذلك الهدف الخبيث، الذي ينتهي بتهديم الأسرة واغواء المرأة وتسليع جسدها، لتسقط في بئر الرذيلة والمسخ

والهـوان، للقضـاء علـى فطرتهـا وعفّتهـا وجمالهـا الروحـي والقلـبي والحسـي، بشـتى الوسـائل والأسـاليب الشـيطانية. ومـا مـؤتمرا بكـين والقـاهرة حـول الأسـرة وتحـديثها وتحريرهـا.. منـا ببعيـد، واللـذان أقيمـا في أواخـر القـرن الماضـي لتفعيـل القـرارات والقـوانين والتوجهـات الجديـدة، الـتي دعـت اليهـا تلـك المـؤتمرات المشـبوهة، والـتي أرادوا مـن خـلال ذلـك نشـرها وتنفيـذها، ضـمن اطـار الـدول والمجتمعـات في الشـرق، بعـد أن تمّ العمـل بهـا في الغـرب قبـل قـرن مـن الزمـان. ان كـل تلـك الجهـود المبذولـة هنـا وهنـاك مكرّسـة لتقـويض الأسـرة وتحطـيم أركانهـا وقواعـدها الأصـيلة، باسـم الحريـة الشخصـية والـدفاع عـن المـرأة وحقوقهـا المسـلوبة ونبـذ التقاليـد الباليـة العتيقـة، وكـذلك لامـتلاك زمـام المبـادرة في الادعـاء زوراً وبهتانـاً بـأنهم أفضـل مـن يقـوم برعايـة المـرأة وقضـاياها وحقوقهـا والـدفاع عـن حقـوق الطفـل والقاصـرين في الأسـرة مـن ظلـم الرجـل وطغيانـه وجبروتـه وثقافتـه المتخلفـة القديمـة، والـتي يقصـد بهـا طبعـاً ثقافـة الفطـرة المحافظـة السـوية وموروثاتهـا الأصـيلة والغـيرة الفطريـة على الـدين والأخـلاق، وهـي آخـر مـا تبقـى لـدى المجتمـع البشـري مـن أخـلاق الأنبيـاء والرسـل الكـرام. قـال تعـالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣٢].

٣٢ سورة الروم/ ٣٠.

المساواة بين الرجل والمرأة والفروق الخَلْقية بينهما :

لا شك اذن من أن الرجل والمرأة متساويان في الروح الانسانية، التي هي نفخة من روح الله سبحانه وسره في الانسان ذكراً كان أم أنثى. قال تعالى: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[٣٣]

وان الانسان الذي خلقه الله تعالى حين خلق أبينا آدم وجعل نسله من سلالة من طين، مكوّن من الروح والقلب والعقل، تلك الثلاثية الرائعة في نظام الفتوة العربي وفي الرمز الهندسي العربي الأصيل، والمؤصلة بنصوص عديدة من القرآن الكريم، الذي يشير كثيراً الى مفردات تلك الثلاثية في العديد من آياته الكريمة. تلك الثلاثية البسيطة التي امتازت بها حضارة العرب وحضارة القرآن عن غيرها من الحضارات الأخرى، التي انفردت بالعقل وضخّمت دوره في حياة الانسان وثقافته وفكره، وتركت الروح والقلب وأثرهما الكبير في صنع الحضارة والأخلاق في المجتمع الانساني. لذلك نجد في القرآن ما يشير الى الروح وانها من أمر الله وأسراره التي لا يعلم الانسان عنها الا قليلاً، ونجد فيه تارة أخرى نصوص تتحدث عن القلب وانفعالاته وتأثيره على الانسان وتوجهاته وعواطفه، وثالثة تتحدث عن هبة العقل والعلم والفقه التي كرّم الله بها بني آدم، ليميزه عن الحيوان الأعجم، الذي لا يعقل شيئاً وليس لديه من المواهب والأدوات والذوات العاقلة، سوى الغريزة التي ترشده الى أفعاله وتحركاته، لكي يدبّر بها أمره ويحيى بها حياته البهيمية، مسخرة لخدمة الانسان وعالمه الواسع الرحب في ظل درب الحياة الطويل. ولا فرق

---

٣٣ سورة الحجر/ ٢٩ وسورة ص/ ٧٢.

في ذلك الخلق بين الرجل والمرأة. ففي الروح يكمن سر الحياة والارادة والاختيار والمبادرة والمبادئة، التي تميز الانسان المكرم بتلك الروح عن غيره من الأحياء. أما القلب ففيه الوجدان والعاطفة والمشاعر وجوهر الأخلاق والفضائل والرغبات، وكل ما يدل على ميل الانسان وهواه تجاه المحيط من حوله. أما العقل فيكمن فيه العلم والمعرفة والحكمة والفقه والأفكار التي تربط الأسباب بالمسببات وصولاً الى فهم الكون وما فيه، للعيش فيه وقيادته الى الوجهة التي يريدها الانسان لخلافة الأرض وبناء الحضارة والحياة وتطوير الأدوات والوسائل المتاحة أمامه. ولكي يصل الانسان الى الشخصية الجزلة ومكارم الأخلاق والى الكمال في الحياة الانسانية ذكراً كان أم أنثى، ينبغي أن تتكامل فيه تلك الثلاثية في أجمل منظومة متفاعلة على خط الاستقامة، لتكوين الانسان الكامل (ذكراً أم أنثى) الذي ينبغي أن يجمع بين الشجاعة والعفة والحكمة، شجاعة الروح وعفة القلب وحكمة العقل[٣٤].

ولله في خلقه شؤون فقد خلق الذكر والأنثى، وأعطى لكلٍ منهما من المميزات ما ينفرد بها عن الآخر، لكي يؤدي دوره بأحسن حال وأتم وجه، كما فصلنا سابقاً في فصل المرأة بين الاسلام والغرب. ومن تلك المميزات التي اختلفت فيها طبيعة المرأة عن طبيعة الرجل، في التعامل مع مفردات الرمز الهندسي العربي القرآني، المتمثلة بثلاثية الروح واللقلب والعقل وارتباطهم ببعضهم في التفاعل والتعامل مع البيئة المحيطة بالانسان الذكر والأنثى، ان روح الانسان واحدة لدى الزوجين الذكر والأنثى، وهي كما ذكرنا سر الحياة ومنبع الايمان واليقين والتفاعل الروحي بشتى

---

[٣٤] انظر: كتاب العولمة وأثرها في التربية والمجتمع العربي/ للمؤلف، طبع عمان/ عالم الكتب الحديث ٢٠١١م.

صوره. أما القلب والعقل فهناك اختلاف جوهري بين الرجل والمرأة في التعامل القلبي والعقلي لكل منهما. فالرجل بطبيعته يستطيع التحكم بقلبه ويستطيع تجزأة مشاعره وعواطفه وتوجيهها الى أطراف متعددة، بعكس المرأة التي تتجه عادة وجهة واحدة بكل عواطفها نحو زوجها (مثلاً) ولا تقبل تجزأة تلك العواطف والمشاعر الى أكثر من رجل واحد وهو الزوج، وتلك هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وفطرنا رجالاً ونساءاً عليها، وليس لنا تغييرها وتبديلها كما يقول الله سبحانه في نصوص عديدة من القرآن الكريم.. في حين أن الأمر ينقلب رأساً على عقب بالنسبة الى العقل، فالرجل يتعامل بعقله بكلية واحدة ولا يستطيع أن يوجه فكره الى عدة قضايا في وقت واحد، وانما يستطيع أن يقوم بذلك على الترتيب والتوالي، فيأخذ القضايا التي تواجهه قضية تلو أخرى وملف بعد آخر، ولا يتجه في الغالب الى قضية الا بعد أن يحسم القضية الأولى وهكذا.. أما المرأة فان الله سبحانه زودها بقدرة فائقة حين تقوم بالعمل العقلي الدقيق والمتعدد الاهتمامات، فهي قادرة بحكم طبيعتها وفطرتها التي خلقها الله عليها، أن تعمل وتطبخ وترضع وتتحاور مع زوجها وتراقب شاشة التلفاز، كل ذلك في وقت واحد، وهي سعيدة بذلك التنوع والتنقل بين عدة ملفات وقضايا في الوقت نفسه، بينما يتعذر على الرجل في الغالب أن يهتم بأكثر من ملف واحد قد يكون عمله أو حوار مع صديقه أو التفكير المستفيض في أحد المشاريع المهمة لمستقبل حياته. ان هذا التفاوت في تعامل المرأة والرجل في الجانب القلبي والعقلي، هو ما يتفق تماماً مع طبيعة الوظيفة التي خلق من أجلها الذكر والأنثى، كما أنها تتفق مع الطبيعة البايولوجية

والنفسية لسنة التعدد في الزوجات، التي شرعها الله للمسلم لكي تبنى الأسرة المسلمة على الأسس السليمة لبناء المجتمع الفاضل النظيف، دون تقاطع أو تعارض مع الفطرة السوية والطبيعة البشرية، ولكن أكثر الناس لا يعلمون سر التشريع الالهي وحكمته ودوافعه وأسبابه الخفية والظاهرة. ولذلك يقوم الاعلام الغربي بكل ما أوتي من قوة بمحاولة مسخ الفطرة ومهاجمة الثوابت الطبيعية التي خلقها في نفس الانسان ذكراً كان أم أنثى، لتغيير خلق الله وابعاده عن الهدي القويم خدمة للشيطان ومنهجه الخبيث. ان تلك القاعدة العامة في النظرة الى سلوك الرجل والمرأة القلبي والعقلي هي حجر الزاوية في فهم السلوك الطبيعي والتعامل معه، مع عدم نفي وجود الاستثناء في ذلك، حسب التداخل السلوكي والخَلْقي بين الذكورة والانوثة، وحسب النسب المتفاوتة في هرمونات الذكورة والانوثة في جسم الانسان وطبيعة خلقه وتركيبه الجيني والوراثي، وأثر الظروف والعوامل المكتسبة المؤثرة سلباً أو ايجاباً في شخصية الانسان ذكراً كان أم أنثى.

ان المرأة التي ترفض تعدد الزوجات، ترفضه في الغالب قياساً على نفسها، لأنها لا تفهم التعدد القلبي ولا تدرك معناه ومغزاه، فهي حين تحب تحب رجلاً واحداً وتتزوج رجلاً واحداً، فكيف يستطيع الرجل أن يحب أكثر من امرأة ويتزوج أكثر من امرأة؟. ولكنها حين تكون مؤمنة بالله ورسالته الخالدة، وتؤمن ان هذا التشريع جاء من لدن حكيم عليم يعرف فطرة الانسان وميوله الروحية والقلبية والعقلية، لأنه خالقها ومبدعها، حين ذاك سوف تعرف السر الكامن وراء ذلك التناقض والتعارض الظاهر الذي تشعر به، بين رغبتها وما شرعه الله لها

ولحياتها، وستوقن وتطمئن ما آمنت بالله وكتبه ورسله، أن الله لن يظلمها في ذلك التشريع الكريم، وانما راعى فيه فطرتها وحاجتها وحاجة المجتمع من بني جنسها. وان كان لابد من قول شيء بعد ما قلنا آنفاً لفهم ما هو عصيٌّ عن الفهم بالنسبة لها، ويمكن أن يسهم بفكّ مغاليق هذا اللغز الذي قد تواجهه، فانها أولاً تستطيع اللجوء الى ايمانها بربها لتتزود بالصبر والمصابرة والقناعة والثقة بالله، وبالطمع والرغبة الصادقة بالاجر الوفير في الآخرة على صبرها، حين يريد زوجها أن يطبق السنة ويشرع في الزواج من امرأة مسلمة أخرى، واحتسابها ذلك الحدث لله سبحانه، وهذا هو ما يتمناه الانسان ذكراً كان أم أنثى، وهو ضمان رضا الله وحسن الخاتمة، واداء الدور الكريم والمرجو منها في الحياة الدنيا والعمل الصالح، لبناء الأمة والتربية الصالحة الرشيدة.

وهو ثانياً يمكنها أن تتأمل في التشريع الالهي في ثنايا الكتاب العزيز، لكي تسلم لحكم الله وشرعه بكل رضا وطمئنينة، فهو سبحانه القائل: **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما﴾**[35]،

ويمكن أن نشبّه تشريع التعدد لمن غابت عنهم حكمه العديدة، لاسيما من النساء اللائي لا يسلّمن بتطبيق سنة التعدد، أو يتأففن من ذلك الحدث، ويجعلن منه مصيبة أو كارثة قد لا تستحقها، بعد سنين من التضحية والعلاقة الزوجية

---

٣٥ سورة النساء/ ٦٥.

الودودة، نشبهه تماماً كما يواجه الرجل تشريع الجهاد والشهادة في سبيل الله والتضحية بنفسه، دون أن يستطيع فكّ ذلك اللغز المتعلق ببذل النفس الغالية والموت، من أجل أن تحيى رسالة الاسلام ومن أجل كرامة المجتمع الاسلامي، ودفاعاً عن بيضة الاسلام ووجوده، فهناك من الرجال من قد يستغرب من فرض الجهاد عليهم دون النساء، رغم وضوح الحكمة والمغزى النبيل وراء ذلك التشريع الالهي، بسبب دوافع ذاتية أو حب الدنيا وكراهية الموت. وكذلك يحصل لبعض النساء اللائي لا يتحسسن المغزى العميق لسنة التعدد والترخيص للرجل بالزواج من عدد من النساء قد يصل الى أربعة نساء. ولو نظرنا بامعان فربما سنجد ان هذا قد شرع لذاك، فمن للأرامل بعد أن يتركهن الشهداء بدون راعي أو عائل، الا ذلك التشريع الحكيم، الذي يضمن لهن الحياة الكريمة في حياة أزواجهن وبعد مماتهم. فالأمر سواء اذن بين الرجال والنساء، وتلك أحد مظاهر العدل الالهي بين خلقه، وهو سبحانه الحكم العدل العلي الحكيم.

تعدد الزوجات في إطار الضوابط الشرعية

لقد أصبحت قضية تعدد الزوجات من القضايا الحساسة الحرجة في واقعنا المعاصر، خاصة في محيط العنصر النسائي، وللأسف أن شمل ذلك الفئة الملتزمة بالدين، والتي يتوقع منها خلاف ذلك، إذ الإيمان كفيل بتهذيب النفس، وتربيتها على التسليم بكل ما جاء به الشرع، (فالاستسلام ابتداءً هو مقتضى الإيمان وبه تتلقى النفوس تنظيمات الإسلام وتشريعاته بالرضا والقبول، وسرعة التنفيذ)[36]. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيما﴾[37]. فأغلب النساء المتزوجات أو غير المتزوجات ينزعجن من مجرد طرق هذه القضية على مسامعهن، وينحون بها منحى الكرامة الشخصية، وظلم المرأة وبخس حقوقها وغيرها من الدعاوى التي شاعت وعُدّت من المسلمات، وخاصة إذا كان المتحدث في القضية رجل.. فإنه لا يسلم من سيل الاتهامات فهو المحور الرئيس في القضية، ومن ثم يرى من الأسلم له ألا يدلي بدلوه فيها. وفي الحقيقة هذه القضية حساسة بالنسبة للطرفين الرجل والمرأة، ولكن ربما لو تحدثت فيها المرأة، فإن تأثيرها سيكون أوقع وأبلغ، لأن الطرف المتذمر فيها هو المرأة، ومن ثم، سيكون الحوار عن طريقها بعيداً عن الاتهامات التي دائماً ما تكون مصوبة نحو الرجل، خاصة إذا أخذ سياق عرض الموضوع إبراز

---

٣٦ في ظلال القرآن: ٢/١٠٠٩.

٣٧ سورة النساء/ ٦٥.

مدى حاجة واقعنا المعاصر إلى بيان الضوابط العقدية والشرعية في قضية تعدد الزوجات بالنسبة للرجل والمرأة على السواء. فالناظر إلى واقعنا المعاصر يجد انحرافات كثيرة في مفهوماته وتصوراته لقضايا كثيرة في الدين، ومن هذه القضايا قضية تعدد الزوجات؛ إذ شُوّهت صورته وعرضت عرضاً منبتاً عن أبعاده الإيمانية من قبل خصوم الإسلام، ومن قبل سوء تصرفات من ينتمون إلى الإسلام من الرجال الذين أساؤوا إلى المرأة باسم إباحة التعدد، هكذا على إطلاقه دون ضوابط وأسس إيمانية واعية للمقصود الحقيقي من وراء التعدد، كما أن جلّ النساء (حتى من يعرفن بالالتزام الديني) أصبحن يرفضن هذه القضية ويبدين تأففهن منها.

إن قضية التعدد هي ثغرة استغلت من قبل خصوم الإسلام، فهي على صعيد العنصر النسائي تقابل في نفس المرأة شهوة الاستئثار بالرجل دون غيرها من النساء، ومن ثم فهي تنزع لذلك إلى النفور من التعدد، وعلى صعيد الرجال تقابل إشباع ميله إلى النساء بصورة كبيرة، وبالتالي قد ينسى في غمرة ميله هذا أو في غمرة الجهل بالدين ما لهذه القضية من ضوابط ومفهومات إيمانية يجب أن تراعى.. ومن ذلك نرى أنها ثغرة أحكم انتقاؤها لزعزعة عقيدة الأمة والإخلال بكيانها الاجتماعي، إذ سنلمس ذلك من خلال عرض عواقب ذلك على الأمة وكيف تم.

فمن وسائلهم في ذلك، الغزل الفكري عن طريق الطعن في الإسلام من خلال هذه القضية، والخوض فيها... الخ، والغزو الإعلامي الرهيب عن طريق وسائل الإعلام جميعها، خاصة الفضائيات وشبكة الانترنيت وقبل ذلك الإذاعة والتلفزيون، إذ عرضت التمثيليات والأفلام التي تمثل أن التعدد ظلم للمرأة وإهانة

لها وخيانة من قبل الرجل، وصوّر الرجل الذي يعدد بالقسوة والظلم وتعمد الإهانة للزوجة الأولى وبخسها حقوقها الزوجية...الخ، أو تصوير الإباحة الشرعية لحالات خاصة فقط دون سواها كالعقم والمرض وما شابه ذلك[٣٨].

---

٣٨ استطاع الإعلام الغربي وبنجاح، أن يصور هذه القضية التي أباحها الإسلام، بأنها من أكثر معالم التخلف الحضاري في الفكر الإسلامي، واستطاع عن طريق الأفلام السينمائية ودور النشر والصحافة، أن يقنع المسلمين بضرورة التخلي عن هذه الفكرة ومحاربتها والخجل منها، على الرغم من إن الغرب عانى خلال الحربين العالميتين من زيادة غير طبيعية في عدد النساء بالنسبة للرجال، مما أدى إلى انهيار الأخلاق وانتشار الرذيلة والإباحية في المجتمع الغربي لعدم وجود مثل هذا التشريع لديهم، ورغم مطالبة المصلحين الاجتماعيين بإباحة التعدد وخصوصاً بعد الحرب الثانية، إلا أنها حوربت وأجهضت من قبل المتطرفين من رجال الدين والكنيسة، مما أفرز ظاهرة بديلة في المجتمع الغربي نراها اليوم بارزة، ألا وهي انتشار العشيقات والخليلات والعلاقات والصداقات المحرمة بين الجنسين (المخادنة أي العلاقة السرية) تبعها تفشي الطلاق والتفكك العائلي والشذوذ، وغيرها من الأمراض والعلل التي يعاني منها المجتمع الغربي، كمرض الايدز الذي يمثل العقوبة الإلهية للمجتمع البشري حينما ابتعد عن الفطرة السليمة، وغرق في المفاسد والملذات.

أما بالنسبة للعالم العربي فقد لعبت السينما العربية وبتوجيه من القوى المفسدة الخفية في الغرب، دوراً خطيراً في إفساد المجتمع العربي منذ بدايتها عام ١٩٢٧ ولحد الآن، حيث كان تشويه فكرة تعدد الزوجات جزءاً بسيطاً من خطة شاملة لمعالجة قضية المرأة والمجتمع بالطريقة التي تخدم أهدافهم، لإفساد المجتمع وإبعاده عن الأخلاق الكريمة، بغية تدميره والسيطرة عليه. ويمكن للمراقب للأفلام العربية القديمة أن يلمح أهم الركائز التي أعدت لإفساد المرأة المسلمة وأبرزها: التأكيد على فكرة الحب قبل الزواج، كمقدمة ضرورية لإتمامه بشكل سليم، وفكرة ضرورة تأخير الزواج لما بعد الجامعة والعمل (الوظيفة) وفكرة المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة، والتركيز على فكرة الزواج المقدس الأبدي (المسيحية) بدل فكرة الزواج الإلهي التي تجعل الزوجين يعملان من أجل هدف أسمى وهو إرضاء الله سبحانه وخدمة الدين والخير، وكذلك محاربة فكرة الطلاق مهما كانت الأسباب والحكم عليه بأنه علاج عقيم لمعالجة المشاكل المستعصية، واستهجان فكرة تعدد الزوجات مهما كان المبرر له واعتبارها من التشريعات الهمجية. ويمكن أن نجد لهذه الركائز شواهد عديدة من الأفلام والمسلسلات التي بدت بتعرض هدوء منذ أكثر من نصف قرن على يد مجموعة الأبطال والفنانين! (ممثلين ومخرجين ومنتجين) الذين ثبت أن للكثير منهم دوراً وارتباطاً

من خلال هذا العرض الوجيز المذكور آنفاً، أصبح هناك قلب في المفاهيم تجاه قضية التعدد في حياة المسلمين، ومما ساهم في زيادة ذلك ما وصل إليه حال أغلب المسلمين من جهل عظيم بالدين، إذ وجد من يعدد دون وعي بالمستلزمات الشرعية لذلك، من أداء للحقوق وصيانة لكرامة المرأة والحرص على عفافها واتقاء الله في حسن معاملتها، فشُوّه التعدد من قبل هؤلاء، وبذلك اجتمعت الوسائل المرئية والسمعية والواقعية على تشويه هذه القضية، لدرجة أن أصبح من المسلمات في حياة كثير من المسلمين، أن الأصل هو الاكتفاء بواحدة، وأن التعدد حالة

مشبوهين بالقوى الخفية في الغرب، ويمكن أن يستثنى من ذلك مسلسل (الحاج متولي) الذي أنصف فكرة التعدد، وإن كان قد حصرها فقط بين التجار الأغنياء وليس لكل قادر على التعدد كما أشار حديث الباءة المعروف، ومطلعه: من استطاع منكم الباءة فليزوج.. وهي القدرة بكل مظاهرها وأكد الشرع الحنيف على العدل كشرط ثاني للتعدد المباح، كماجاء في الكتاب والسنّة.

واستكمالاً للصورة تقوم أفلام أخرى بتشجيع الانحراف والرذيلة وتقديم المبررات لها والتأكيد على إن الناس محكومون دائماً بظروفهم، وأن المجتمع القاسي والظالم هو الذي يجبر الإنسان على الانحراف سواء أكان رجلاً أم امرأة. وتكفل أفلام أخرى بعرض مفصل للواقع المنحرف ولصور وشخصيات الفساد المتنوعة في المجتمع، لتعويد المشاهد على هذه الأجواء، إضافة إلى عرض مشاهد التهتك والرقص والغناء بكثرة وابتذال، بحجة الفن وأهل الفن، كل ذلك لإفساد الذوق والفطرة واستدراج المرأة وإبعادها عن الفضيلة والعفة والخلق القويم، وكبت أي محاولة جادة لبناء المجتمع الفاضل الذي يريده الله سبحانه. إن هناك خطة إعلامية متكاملة يقودها الشيطان الغربي على الشرق المسلم تتناغم مع الخطة الاقتصادية والعسكرية للاستعمار الجديد، ولهذه الخطة سلسلة من الخطوات المتتابعة، نتحسس حلقاتها الجديدة في الأثر السيئ في البرامج الفضائية والأفلام الفيديوية والسيديات ومواقع الانترنيت والسينمات الرخيصة، لبث السموم الجنسية والإباحية ونشر ثقافة الحيونة وعرض لقطات الممارسة الجنسية، إضافة الى البرامج الثقافية التي تطرح الحضارة الغربية العلمانية كبديل للحضارة الإسلامية.. ولكن هذا المكر السيء هو مكر الشيطان، ومكر الله خير وأعظم: ﴿**وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾. وعليه فقضية التعدد والمرأة في الحقيقة هي جزء من مؤامرة متكاملة على المجتمع البشري الفاضل العفيف.

استثنائية بشروط محددة وصارمة وليس أمر مباح ولمن يقوم به فضل المشاركة في معالجة العديد من الظواهر الاجتماعية الخطيرة، التي واكبت انتشار ظاهرة تأخر سن الزواج وكثرة المطلقات والأرامل في المجتمع. ولقد عانى الغرب من آثار منع التعدد وتعاليم الكنيسة التي تدعو للإفراد وتمنع الطلاق والتعدد، وفي ذلك يقول المفكر الفرنسي ايتان دينيه: إن تعدد الزوجات عند المسلمين أقل انتشاراً منه عند الغربيين، الذين يجدون لذة الثمرة المحرمة عند خروجهم عن مبدأ الزوجة الواحدة!، وهل إن المسيحية قد منعت تعدد الزوجات حقاً؟!. وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه؟!. إن تعدد الزوجات قانون طبيعي، وسيبقى ما بقي العالم، إن نظرية الزوجة الواحدة التي يتبناها الغرب المسيحي، أظهرت ثلاث نتائج اجتماعية خطيرة هي: العوانس والبغايا والأبناء غير الشرعيين[٣٩].

كما أن هناك ملاحظة أخرى تختص بواقعنا المعاصر وما آل إليه من جراء ذلك بيانها في النقاط التالية:

٣٩ انظر: كتاب رجال ونساء أسلموا، غوريغورس بن أهرون.

وكتاب: القرآن يقوم وحده، للمؤلف، ص٤٦.

١. بروز ظواهر اجتماعية غير طبيعية

انتشار ظاهرة العنوسة بين الفتيات وبقاء أغلب الأرامل والمطلقات بدون زواج.

ولا يخفى على البصير عواقب هذا الأمر، الذي يرتبط ارتباطاً مباشراً بقضايا فطرية إنسانية، قد لا تقوى على تهذيبها، إلا من رحم الله بالإيمان، فإشباع الحاجات الفطرية وتحقيق الاستقرار النفسي والسكن، لابد له من شريكين الرجل والمرأة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٤٠]. فهذا الذي فطر الله الناس عليه، والمجتمع الإسلامي ينبغي له أن يكون متكافلاً متعاوناً على البر، ومن البر تحقيق الصون والعفاف لأفراده، وإعانتهم على تيسير الزواج، وعدم ترك المطلقة، والأرملة دون زواج، فهذا من شأنه أن يثير الفتنة في المجتمع ويشجع على ارتكاب المحرمات، خاصة وأننا في مجتمعات تكالبت الوسائل فيها على بث الإباحية والمجون والفساد، وبالتالي كان لزاماً على المربين سد أبواب الفتنة والانحراف، بالوسائل الشرعية الفاعلة... فأي عفاف وصون للشرف والأخلاق أعظم للمرأة من الزواج والستر والسكن والاستقرار الاجتماعي؟!.

---

٤٠ سورة الروم/ ٢١.

٢. قضية دعوية تدعيمية لتحقيق صلاح المجتمع المسلم:

وبيان ذلك في التالي: إذ أن من الملاحظ قلة عدد من يرتجى فيه الصلاح في مجتمعاتنا المعاصرة، وهذا الأمر يمثل خطراً كبيراً إذا لم يتلاف بجميع الوسائل، ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن أول ما يتبادر إلى الذهن من يهتم بشؤون المسلمين في زيادة عدد الصالحين، هو الدعوة إلى الله بالوسائل المعتادة من إعلامية وتعليمية وتربوية وغيرها. وهنا ترد وجهة نظر في عرض وسيلة أخرى مجدية إن شاء الله وهي:

وعي الفئة الصالحة من الرجال لفائدة تعدد الزوجات وتطبيق ذلك، إذ إن من استبان صلاحه يتوقع منه حسن تطبيق التعدد، بل وتحقيق سنة النبي ﷺ وصحابته من بعده في التعدد، فيصحح مفهوماً قد شاع سوء فهمه بين الناس. إن الرجال المعددين غالباً ما يكونون من الجهلة والسَوَقَة الشعبيين، حيث ركزت الأفلام المصرية على نشر تلك الصورة الخاطئة. هذا بالإضافة إلى ترقب أن يرزقه الله بالذرية الصالحة، والتي سيتقي الله في تنشئتها النشأة الصالحة الفاعلية في المجتمع بإذنه تعالى، ولو مثلنا لذلك بمثل عددي ربما وضح القصد، وهو أنه لو اكتفى الرجل الصالح بزوجة واحدة، فإن نتاج ذلك إن شاء الله من الذرية على أقل تقدير أربعة من البنين والبنات وسيتوقع أن يكون أغلبهم من الفئة الصالحة الفاعلة لصلاح أبيهم وبركة تقواه (إذ شرط الصلاح في هذه القضية مهم جداً)، ومن ثم سيكون مكسب المجتمع المسلم (زوجة صالحة + فئة من الأولاد الصالحين)، ولكن لو عدد هذا الرجل الصالح وأعانه المجتمع المسلم على ذلك، فإن مكسب المجتمع

المسلم سيكون أكثر بكثير من البنين والبنات من ذوي الصلاح والفاعلية إن شاء الله، ومن ثم ستكون هناك زيادة في عدد الصالحين، ويلاحظ أن الزيادة المرتقبة ليست قليلة بل هي تعادل ثلاثة أضعاف أو أكثر حسب مشيئة الله، وقد لا يخفى على المسلم البصير أن هذا النفع الدعوي من التعدد، ربما كان هو الذي حدا بخصوم الإسلام إلى محاربته، وخاصة بين الفئة التي يرجى صلاحها في المجتمع المسلم، كما أنه من واقع تطبيق التعدد في حياة مجتمع القدوة في عصر النبوة والخلافة الراشدة، وقد يندر أن يكتفي صحابي بزوجة واحدة[٤١]، أفلا يجدر بنا ونحن في هذا الواقع المرير، أن نتدبر ما آل بمجتمعاتنا الإسلامية وما وصلت إليه من حال بئيس في جميع المجالات، وخاصة المجال الاجتماعي الذي أهمل شأنه طويلاً، حتى أصبحت قضاياه ظواهر اجتماعية بارزة للعيان قد يصعب تداركها الآن بعد أن استفحل خطبها، فالله المستعان وعليه التكلان، وعسى أن تثوب هذه الأمة إلى رشدها، وتتلمس حقيقة الثغور التي تؤتى من قبلها فتسارع إلى حراستها بالنفس والنفيس[٤٢].

---

٤١ انظر: كتاب النسب والمصاهرة بين أهل البيت والصحابة، للمؤلف، حيث ظهر خلال استعراض، ترجمة الآل والأصحاب، إن كل الصحابة قد عددوا، سوى حالتين، تخص عثمان بن مضعون وقد تفرغ للعبادة، وهو الذي اشتكت زوجته للنبي من إهماله لها فقال له: إن لجسدك عليك حق وإن لزوجك عليك حق وان لدينك عليك حق. والصحابي الثاني من أصل ألف صحابي تمّ عرض ترجمته في الكتاب، هو أبو عبيدة عامر بن الجراح، الذي تفرغ للجهاد وكان أمين الأمة كما وصفه النبي ﷺ.

٤٢ يصرح بعض الإعلاميين الإسلاميين بأنهم من الموحدين المؤمنين بالإفراد في الزواج، ويحاولون تبرير التعدد بأنه لم يشرع الا للضرورة. والدافع وراء ذلك: إما حب الدنيا وخوفاً من الزوجة وإرضاء للمجتمع النسوي أو تنفيذاً لتعليمات خصوم الإسلام.

٣. عدم قبول الفتيات الارتباط بالرجل المتزوج:

إن عزوف أغلب الفتيات عن الارتباط بالرجل المتزوج، قد ثنى كثيراً من الرجال عن التفكير في التعدد، بل والحياء من قضية عرضه، سواء في محيط أسرته أو في محيط المجتمع؛ إذ إن معظم الناس في مجتمعاتنا ينظر إلى القضية على إنها قضية أهواء شخصية محضة.

وتفنيد ذلك يتطلب معطيات إيمانية قوية، وممارسات شرعية ظاهرة، يمكن إيجازها بما يأتي:

١. تصحيح المفاهيم، ببيان التعدد والضوابط العقدية والشرعية، فيه من تقوى الله ﷻ، وإخلاص التوجه إليه في الإقدام على هذا الأمر، والحرص على الذرية الصالحة، وتكثير الفئة الصالحة في المجتمع، وتحقيق العفاف لنسائه والرقي بهن إلى مصاف نساء السلف الصالح فكراً وممارسة، والأخذ بيد المرأة المسلمة إلى تقديم دينها على ما سواه في حياتها، وتحكيمها لشرع الله ورضاها به وتسليمها لما جاء به، فسعادتها في تحقيق دين الله في نفسها ومحيط الأسرة حولها، وإن وهبها الله فقهاً في الدين فلتكن خير معين لأختها في غرس بذور الإيمان بأحكام الشرع والرضا بالتسليم بها، فكراً وممارسة، وتنقية النفوس مما من شأنه أن يثير البغضاء والشحناء، ولتعلم أن خير معين لها في ضبط سلوكها وانفعالاتها وتوجيه أفكارها، هو التمسك بدينها والفقه فيه والعمل به، إذ به تتحقق المقاصد الإيمانية، وتتهذب النفوس والطباع، ولا غرو أن حث النبي ﷺ على الزواج من ذات الدين وتفضيلها من بين النساء، بقوله: (تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر

بذات الدين تربت يداك)[٤٣] لأن من جعلت إيمانها نصب عينيها، وسعت جاهدة في خدمة دينها وتيقنت أن الدنيا دار ابتلاء وفناء، وأن الآخرة هي دار القرار، فإنها لن توصد أبواب الخير في سبيل أغراض دنيوية ومصالح ذاتية، وستحاول أن تجعل نظرتها لما شرع الله من أحكام ذات أبعاد إيمانية، تغرس في نفسها الرضا والتسليم بحكم الله ورسوله، قال تعالى: **﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾**[٤٤]، ويمكن حينئذ أن تنظر إلى قضية التعدد على إنها باب من أبواب الخير والدعوة إلى الله[٤٥] فزوجها

---

٤٣ صحيح البخاري، ١٩٥/٥، كتاب النكاح، باب ١٦، ٤٨٠٢.

٤٤ سورة النساء/ ٦٥.

٤٥ مما لا يخفى أن الإسلام لا يأمر المرأة المسلمة المتزوجة بأن تشجع زوجها على التعدد، أو تقوم بدور الخاطب له، فهذا مخالف لفطرة المرأة وطبيعتها، ولكنه يطلب منها موقفاً متوازناً وإيجابياً حينما يشرع الزوج بتطبيق هذه السنة الشريفة، وتطبيق شرح الله في زوجة ثانية أو أكثر، باعتبارها باباً من أبواب الخير والدعوة إلى الله، فينبغي لها أن تتحلى بالصبر والاستعداد للتضحية بجزء من منافع الحياة الدنيا من أجل دينها وآخرتها، تماماً كما يفعل الرجل المسلم وهو يضحي بماله ونفسه في حالة الجهاد في سبيل الله، فكل شيء في سبيل الله هيّن على النفس والقلب. وكذلك يريد الإسلام بعد تنفيذ التعدد أن تحيا النساء المسلمات الحياة الطيبة الواقعية في بيت واحد أو بيوت متقاربة تمشياً مع السنة النبوية مع أزواجه ﷺ لكي يتم الانسجام والتفاعل بين أفراد العائلة بشكل أكمل، ونجاح الحياة الإسلامية في البيت المسلم هو حالة إيجابية تعكس صفة حيوية هذا الدين وواقعيته في مواجهة الظروف وحاجات المجتمع المتنوعة، وظاهرة التعدد مرتبطة أساساً بمظاهر المجتمع الإسلامي ونشاطه العام مجتمعاً محافظاً، يبغي المحافظة على المرأة وعفافها وتحصنها مع فتح أبواب النشاط الاجتماعي والدعوي في البيت والمسجد والمنطقة التي تسكنها، فوجود مجموعة من النساء والأبناء والآباء ضمن إطار البيت الشرقي الأصيل والتقاليد والأعراف الأصيلة وفق مفهوم العائلة الممتدة أو العائلة العشيرة الذي لا زال مطبقاً في القرى والمدن الصغيرة المنتشرة في العالم العربي، والتي يسكنها الأخوة وأبناء العم من العشائر والأفخاذ والعوائل الكبيرة. كل ذلك يجعل من

يمثل الرابط المشترك بينها وبين أختها في الله الثانية أو الثالثة أو الرابعة، وأبناؤها وأبناء أخواتها في الله هم أخوة لأب واحد، وأن أبناءه هم أبناؤها، ومن ثم فالعلاقة وثيقة قريبة، فلتتعاون هي وأخواتها في الوعي بحقيقة هذا الدين، والوعي التربية الإسلامية الحقة التي يرتجى منها جيل قوي يعيد لهذه الأمة مجدها وعزتها، ولتعلم أن هذا الأمر لا يمكن أن تقوم به جهود أفراد، وأن القضية في حاجة ماسة إلى جهود جماعية واعية بصيرة، وأنى لهذه الأمة بهذه الجهود الجماعية الفاعلة دون مشاركتك أنت، أيتها المرأة المسلمة؟.

فالرجل الصالح يحتاج لمن يأخذ بيده ويدفعه للأمام دائماً، فما بالك إن تعاونت أنت وأخواتك على ذلك؟... وتعاضدتن على حسن تربية أولاده ومعاونته في ذلك، فيد الله مع الجماعة أينما كانت، والقضية قضية إيمانية بالدرجة الأولى، تحتاج منك أيتها المرأة المسلمة تجرداً ذاتياً لله تعالى، وتوجهاً خالصاً في خدمة الدين، وتطلعاً إلى تحقيق واقع جيل القدوة في حياتنا المعاصرة، فأمهات المؤمنين الطاهرات خير قدوة، والصحابيات العفيفات خير أسوة... وكوني على يقين أن الله تعالى سيعوضك خيراً، ولن يضيع عملك الذي ابتغيت به وجه الله راضية مسلمة بحكمه، مقتدية بسنة نبيه

المجتمع الإسلامي مجتمعاً حيوياً متماسكاً متفاعلاً يزهو دائماً بالفضيلة والخير، بدون الحاجة إلى الاختلاط والانفلات الذي يدعو له الغرب ويبشر به منذ هيمنة الحضارة الغربية على العالم قبل أكثر من قرنين ولحد الآن.

ﷺ وأصحابه من بعده، قال تعالى: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾[٤٦].

٢. الحرص على الممارسات الشرعية في التعدد من قبل الطرفين الرجل والمرأة، ويقصد بذلك ضبط السلوكيات ضمن ضوابط الشريعة، وتوجيهها في إطار العقيدة، أي محاولة أن يكون الهدف من وراء التعدد من قبل الرجل[٤٧] وقبول الزوجة به، ذا أبعاد إيمانية، يعلوها صدق التوجه لله في ذلك وطلب مرضاته بخدمة هذا الدين، وتحقيق العفاف في صفوف أفراد المجتمع الإسلامي، وتكثير الذرية الصالحة، وضبط الممارسات تبعاً لهذه الوجهة العقدية الشرعية، والتي تكفل انضباط الأخلاقيات ضمنها على قدر رسوخها واليقين بها، والتي تجعل قبول المرأة بالتعدد يتوجه للتسليم الخالص به ابتغاء مرضاة الله، وخدمة دينه، وتجعل شراكات الزوجات، شراكة إيمانية قوامها التعاون على البر والتقوى، ومعينها سعة صدر المؤمنة لكل ما من شأنه خدمة هذا الدين، والمساهمة في تربية جيل يرتجى صلاحه وفاعليته:

---

٤٦ سورة آل عمران/ ١٩٥.

٤٧ تتعدد الدوافع التي تشجع الرجل على الزواج بأكثر من واحدة، كما تتباين هبوطاً ورفعةً حسب إيمانه وهمته الدينية، وأفضل الدوافع هو دافع الإحساس بالمسؤولية تجاه المجتمع المسلم وتحصين نسائه، والتأسي بالنبي الكريم ﷺ وتطبيقاً لسنته وابتغاء مرضاة الله وإحسانه، وأدناها التمتع بالحياة الدنيا والميل الى النساء والذرية، والأمر في كليهما مباح وجاد ولا يقبل فيه الهزل والمزاح لأنه دين نتعبد به، كما أن الاكتفاء بزوجة واحدة جائز ومباح، ونسبة التعدد في المجتمع تعتمد على العرف والثقافة السائدة لاسيما في حالات ارتفاع نسبة النساء على الرجال وكثرة الأرامل والمطلقات والعوانس، بسبب الحروب والفتن والظروف التي تحصد الرجال وتطال حياتهم أكثر من النساء.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[48].

فعسى الله أن يرحمنا ويعفو عن تقصيرنا في فهم هذا الدين، وأن نتمثل فكراً وممارسة في سبيل الله من أجل الاصلاح وبناء المجتمع الفاضل.

الداعية الإسلامية

منى عبد الله داود/ بتصرف واختصار

٤٨ سورة التوبة/ ٧١.

فضل تعدُّد الزوجات

ربما يكون من المناسب أن نبدأ هذا الفصل بسرد بعض المواقف، وتوضيح بعض الصور الموجودة في مجتمعنا حول موضوع تعدُّد الزوجات.

قال أحدهم: إنه بينما كان يتحدث مع أخته حول موضوع التعدد، إذا بها تفاجئه قائلةً: (إنني أتمنى أن يُدرك الموتُ زوجي قبلَ أن يحاول الزواجَ عليَّ من امرأة أخرى) ورأيُ هذه الفتاة ليسَ بدعاً، بل هناك الكثير من العائلات في مجتمعنا ترفض الشاب للزواج لمجرد أنه متزوج من امرأة أخرى.

ومما يؤكد رفض مجتمعنا المعاصر سنَّة التعدد أن إحدى جامعاتنا بلغ عدد طالباتها نحو ستة آلاف طالبة لم يتزوَّج منهنَّ أربعمائة طالبة فقط، مما يدلُّ على إن رفض بعضهن الارتباط برجل متزوج ساهم بدرجة كبيرة في رفع نسبة العناس بينهنَّ. ولو استعرضنا العديد من الأسر لوجدنا أن بعضها بلغ عدد البنات البالغات للزواج عندها أكثر من ست إلى سبع فتيات، ولما يتزوَّجن بعد، ولا أظنُّ سبباً لذلك أقوى من كونهنَّ أو ذويهنَّ يرفضون منهج الزواج من شخص سبق له أن تزوَّج.

وفي محاولة لتشويه سنَّة تعدد الزوجات بطريقة ماكرة وخبيثة نشرت إحدى المجلات مقالاً لكاتبة وصفت فيه التعدد في إحدى القبائل الأفريقية: (للزوج أن يهدي إحدى زوجاته لأيِّ ضيف يطرقه ليلاً)! وحاولت الكاتبة أن توجد علاقة متشابهة بين هذا الأسلوب —المرفوض– عند تلك القبائل، وبين تعدد الزوجات في الإسلام، وحسبنا الله ونعمَ الوكيل.

ونشرت مجلة اليمامة نتائج لدراسة أعدَّها قسمُ علم الاجتماع في إحدى جامعاتنا، ذكَرَت فيه أنه يوجد في البيوت نحو سبعمائة وخمسين ألف خادمة[٤٩]، لاسيما في دول الخليج العربي الغنية، فضلاً عن كثرة الأرامل والمطلقات والعوانس، التي أصبحت ظاهرة تهدد المجتمع بالتأزم والانحدار الأخلاقي والتدهور الاجتماعي، اذا لم يتنبه المربون والساسة والقادة الى خطرها.

ولا يخفى على القارئ الكريم مقدار الضَّرر الذي قد يصيب مجتمعنا من جرَّاء هذا العدد الهائل من النساء الذين يواجهن مشاكل حقيقية للحصول على فرصة كريمة للزواج، دون أن يطالبن بها أو يضطرهن الظرف للوحدة والانعزال أو اللجوء الى نوع من السلوك غير الكريم أو السقوط في براثن الرذيلة! ألم يكن الأولى في تعدد الزوجات تكثير للنسل الذي أوصانا به رسولنا الكريم؟ وتحصين للنفس من الزَّلل وحل لمشكلات العنوسة التي تفشت في مجتمعاتنا. وغير ذلك كثير من المشكلات العديدة؟! لكن، ما الحل لوقوف البعض حرباً شعواء أمام تعدد الزوجات؟ وما السبيل لزحزحتهم عن مواقفهم المعادية دون أن ينظروا إلى عواقب تلك المواقف؟

للإجابة على ذلك. لابد من قراءة الصفحات التالية بتمعُّن وحسن تأمُّل، للتثبت من رأي علماء الإسلام في هذا المجال. وكذلك الوقوف على رأي العلماء والحكماء المنصفين في الغرب في هذه القضية الاجتماعية التي كثر فيها الأخذ والرد، وكثر المغرضون والمتصيدون في الماء العكر لغاية في أنفسهم، من المنظرين

---

٤٩ فتياتنا بين التغريب والعفاف، تأليف، د. ناصر بن سليمان العُمَر.

والكتاب والساسة الفاسدين المفسدين، من الذين يريدون أن تشيع الفاحشة في عالم المرأة، باسم الحرية والتحرر وقبول الانحراف في المجتمع باسم القبول بالأمر الواقع الذي لابد منه، وغيرها من الأعذار والتبريرات الجاهزة التي دأبت عليها الكثير من الواجهات الباطنية والمنظمات المدافعة عن المرأة وحريتها الشخصية — عدا المنظمات والجمعيات المنصفة والحسنة النية والمدافعة عن المرأة وحقوقها وكرامتها وصيانة شرفها وعفتها وتعليمها وتهذيبها، وتهيأتها لدورها كبنت وزوجة وأم صانعة الأجيال، كما أمر الله سبحانة وأيدته الأعراف والقوانين الكريمة في الدول والمجتمعات المتحضرة – . تلك الواجهات والمنظمات المصنوعة بدقة واتقان من قبل أرباب الفكر الشيطاني الآسن، لافساد المجتمع ووضع العقبات في طريقه وتحويل الرذيلة والانحراف الى نوع من التجارة الرائجة لجني الثمار المادية والثقافية والسياسية والتجسسية من ورائها، ومن وراء تسيس ملف المرأة وقضاياها — منها ملف الزواج والتعدد – لغايات خفية وسرية، لا يصعب الكشف عنها بمجرد متابعة بسيطة، لنشاط تلك الجهات المشبوهة المبثوثة في ثنايا مجتمعنا العربي والاسلامي هنا وهناك. ولذلك لابد من التوقف عند أقوال بعض مفكري الغرب وعلمائهم حول موضوع التعدد، كما مرّ معنا في فقرة (أقوال علماء ومفكري الغرب في موضوع تعدد الزوجات).

فتوى شيخ الأزهر د. عبد الحليم محمود في تعدُّد الزوجات

س: هل الأصل في الزواج التعدد أم الإفراد بزوجة واحدة؟.

ج. الأصل في ذلك شرعية التعدد لمن استطاع ذلك ولم يخف الجور ، لما في ذلك من المصالح الكثيرة في عفَّة فرجه وعفَّة من يتزوج والإحسان إليهنَّ وتكثير النسل الذي به تكثر الأمة ويكثر من يعبد الله وحده، ويدلَّ ذلك قوله تعالى: **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾**[50] ولأنه ﷺ تزوج أكثر من واحدة، وقد قال الله ﷻ: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾** وقال ﷺ لما قال بعضُ الصحابة: أمَّا أنا فلا آكل اللحم وقال الآخر أمَّا أنا فأصلي ولا أنام وقال آخر أمَّا أنا فأصوم ولا أفطر، وقال آخر أمَّا أنا فلا أتزوج النساء، فلمَّا بلغ ذلك النبي ﷺ خطب الناس، فحمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال: «إنه بلغني كذا وكذا ولكني أصومُ وأفطرُ وأصلي وأنام وآكلُ اللحمَ وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» وهذا اللفظ العظيم منه ﷺ يعم الواحدة والعدد (بل هو للتعدد أقرب). والله ولي التوفيق[51].

س: هل تعدد الزوجات مباح في الإسلام أو مسنون؟

---

٥٠ سورة النساء/ ٣.

٥١ مجلة البلاغ، العدد: ١٠١، ١٩ ربيع الأول ١٤١٠هـ الموافق ٢٩/ ١٩٨٩.

ج. تعدد الزوجات مسنون مع القدرة لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾[٥٢] ولفعله عليه الصلاة والسلام، فإنه قد جمع تسع نسوة ونفع الله بهنَّ الأمة وهذا من خصائصه عليه الصلاة والسلام، أما غيره فليس له أن يجمع أكثر من أربع، ولما في تعدد الزوجات من المصالح العظيمة للرجال والنساء وللأمة الإسلامية جمعاء، فإن تعدد الزوجات يحصل به للجميع غض الأبصار وحفظ الفروج وكثرة النسل وقيام الرجال على العدد الكثير من النساء بما يصلحهنَّ ويحميهنَّ من أسباب الشر والانحراف، أما من عجز عن ذلك وخاف ألا يعدل، فإنه يكتفي بواحدة لقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾. وفق الله المسلمين لما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة[٥٣].

٥٢ سورة النساء الاية ٣.

٥٣ مجلة البلاغ، العدد ١٠٢٨، تاريخ ١ رجب ١٤١٠هـ الموافق ٢٨/ ١/ ١٩٩٠.

من شُبُهات رافضي التعدُّد

قال الرافضون للتعدد نستدل على عدم مشروعية التعدد بقوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[٥٤]، فالكل يعرف أن الرسول ﷺ أعدل الخلق وهو مربي البشرية وهو المشرِّع صلوات الله وسلامه عليه، كان يحب عائشة رضي الله عنها أكثر من غيرها، لأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف شاء. وقد كان ﷺ يعرف ذلك فيقول: (اللهم هذا قَسَمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)[٥٥].

(ومن الشبهات التي وضعها دعاة رفض التعدد، أن الزواج من امرأتين يجعل العداوة بينهما قائماً على قدم وساق، وكذلك تنتشر بين أولاده).

ويحق لنا قبل الإجابة عن ذلك أن نسأل: هل الرجل الذي يعقب أولاداً من امرأتين؛ إحداهما شرعية والأخرى غير شرعية يكون قد قضى على العداوة بين الزوجة الشرعية وغير الشرعية، وكذلك يكون قد أزال البغضاء بين أولاده؟ إن البغض الذي قد يحصل بين الضرائر شيء طبيعي، ناشئ من الغيرة الطبيعية لدى المرأة، وإن معالجة ذلك تتوقف على حزم الزوج وقدرته على إدارة شؤون أسرته، وعدالته بين زوجاته، ومراقبته لله ﷻ.

---

٥٤ سورة النساء/ ١٢٩.

٥٥ رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

فإن كان في مستوى مسئوليته استقامت أسرته، ولا يجد النزاع إلى بيته طريقاً. وإن فقد تلك الصفات دبَّ النزاع والخلاف في أسرته، سواء كان معدد الزوجات أم لا!.

على إن واقع الناس الذي يعايشونه يكذب هذه الشبهة وأمثالها، إذ كم رأينا من الأخوة الأشقاء وهم يقتتلون وقد صارت حياتهم جحيماً لا يُطاق، وإخوة لأب عاشوا بصفاء وهناء، يحب أحدهم الآخر حباً شديداً.

نعم قد نجد مَن يتزوج أكثر من زوجة واحدة، لكنه يسيء في زواجه، إذ لا يعدل بين زوجاته. وهذه قضية تحتاج إلى علاج يستأصل الداء ويداوي السَقَم، لكن استئصال الداء لا يكون بمنع التعدد الذي فيه من الفوائد ما فيه، ونحن نلاحظ في معاملات الناس أفراداً لا يسلكون في معاملاتهم السلوك الصحيح المستقيم... إنهم أناس فسدت أخلاقهم، ففقدوا السجايا الناصعة، فهل نقوم بإبطال تلك المعاملات كلها من أجل أناس انحرفوا عن سبيل الحق والخير والهدى؟؟.

وهل يقول بإلغاء التعامل بين البشر عاقل، تجنباً للمشكلات التي يقوم بها قسم من الناس؟... وإذا كانت إساءة قسم من هؤلاء الجَهَلة قد تحققت في أمر تعدد الزوجات، فإن هذه الإساءة لا تعد شيئاً يذكر، إذا نظرنا إلى الفوائد الكبيرة التي يجلبها هذا النظام وإلى المفاسد التي قد تنجم عن حظر التعدد)[٥٦].

---

٥٦ الإسلام وتعدد الزوجات، تأليف الشيخ إبراهيم النعمة.

الطعن في تشريع تعدد الزوجات ردَّة عن الإسلام:

لقد أجمع علماء المسلمين على ردَّة مَن أنكر شيئاً من كتاب الله تعالى أو كرهه، وكذلك مَن أنكر أمراً متواتراً معلوماً بالضرورة، وهؤلاء الذين ينكرون التعدد أو يرون فيه ظلماً أو هضماً للمرأة أو يكرهون هذا التشريع فلا شك في كفرهم ومروقهم من الدين لذلك أحذِّر هؤلاء المتلاعبين، كما أخاف على هؤلاء الذين يشوهون قضية التعدد ويتحدثون كثيراً عن سلبياتها دون الإيجابيات ويخوّفون الناس من التعدد ويرجفون في البلاد الإسلامية[٥٧]، قال تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً. مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً. سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[٥٨].

أصناف المحاربين لمنهج التعدد:

إن أصناف الرجال المحاربين لمنهج التعدد، لا يتعدى أحد ثلاثة أصناف، أما بعض النساء الرافضات لمبدأ التعدد، فغالباً ما يكون الدافع الحقيقي لذلك هو الجهل والغيرة والأنانية والتقليد للغرب والاعلام المضاد للتعدد، ولكن سرعان ما

---

٥٧ شُبُهات في طريق المرأة المسلمة، تأليف عبد الله بن حمد الهلالي.

٥٨ سورة الأحزاب: ٦٠ — ٦٢.

تعود المرأة لفطرتها، حين تلمس عدم الحكمة في الرفض، والفائدة الاجتماعية لبني جنسها من ذلك التشريع الالهي الرحيم[٥٩]. وأصناف الرجال الثلاثة هي:

١. إمَّا رجل عدو حاقد على الإسلام يخدم مكائد عدوه ويقوم بمهامه، حيث يعلم أن في التعدد إكثاراً لعدد المسلمين وهو يتربص بهم ويريد إضعافهم كما يحدث في بعض البلاد التي دعت المسلمين إلى الاكتفاء بزوجة واحدة، في وقت رأينا النصارى يُنادون بإكثار النسل والزواج المبكر، كما حدث في مصر مثلاً فصارت نسبة النصارى تزيد يوماً بعد يوم ويوشك أن يأتي اليوم الذي يشكل فيه النصارى أكثرية هناك، لأنهم يفكرون أن يجعلوا منها أندلساً ثانية والله المستعان وقد تأكدنا أيضاً أنه يقابل هذه الحملة، حملة أخرى تدعو إلى تحديد النسل وتعطيل الذرية، وكما يحدث في إندونيسيا التي هبطت فيها نسبة المسلمين ٩٪ أي نقص عدد المسلمين خمسة عشر مليوناً لهذا السبب.

٢. أو رجل جاهل بالإسلام سمع الناس يقولون شيئاً فقاله كالببغاء، وما أكثر الجهَّال في عصرنا وأنصاف المتعلمين، ولعل أكثرهم من المثقفين ثقافةً غربية أو شرقية درسوا كل شيء إلا الإسلام وعرفوا العلوم إلا علوم دينهم، ونحن ندعو هؤلاء إلى العلم والبحث والتفكير وعرض مثل هذه القضايا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأن لا يكونوا أبواقاً لعدوهم، ولا مروجين لحقده الدفين، قال تعالى:

﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[٦٠].

---

٥٩ شُبُهات في طريق المرأة المسلمة/ عبد الله بن حمد الهلالي بتصرف بسيط.

٦٠ سورة البقرة/ ١٢٠.

٣. رجال لا نقول فيهم إلا خيراً لكنهم أصيبوا بضعف الشخصية الإسلامية وحب الغرباء، والإسلام في نظرهم في قفص الاتهام، ولا يرغبون أن يقال عنهم رجعيون أو دينهم رجعي، لأنهم يفقدون شخصية المسلم الحق، وأخشى عليهم أن يلتقوا مع الجاهلية في منتصف الطريق يتنازلون عن الكثير من دينهم بحجة الدعوة إليه، لأن عرضه (في نظرهم) بهذا الشكل المشوّه لا يقبل (كما يزعمون) وهذا خطر فادح وشر مستطير. والغريب أن يخرج علينا بعض الاعلاميين الاسلاميين في الفضائيات، وهو يتفاخر بأنه من الموحّدين (!) وليس من المعددين، وهو يود أن يربط بين التوحيد الالهي والافراد في الزواج، وهو وهن وجبن وأنانية واستسلام للمنظور الغربي العلماني في ثوب اسلامي مع الأسف.

حكمة الإسلام في تعدد الزوجات

الإسلام دين شامل كامل يصلُح لكل العصور والأمكنة، فهو الدين الذي اختاره الله للإنس والجن، إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، وبه أتم الله نعمته على خلقه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾[٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[٦٢]. لذا فقد دعا الإسلام إلى عدد من التشريعات الاجتماعية منها تعدد الزوجات، ذلك أن الظروف قد تقتضي التعدد لصالح الذكَر أو الأنثى أو كليهما، فالله تعالى أعلم بما يصلح خلقه فهو المتصف بالعلم المطلق ولا يصف الدواء إلا من علم بالداء، قال تعالى: ﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً﴾[٦٣]. وعن عُمير الأسدي قال: (أسلمتُ وعندي ثمانُ نسوة فأتيتُ الرسول ﷺ فذكرت له ذلك فقال اختر منهن أربعاً)[٦٤] وقال ﷺ: «وأتزوج النساء، فمَن رغِبَ عن سنتي فليس مني» وقد أكثر ﷺ من الزوجات وعدَّدَ الصحابةُ والتابعون ومَن جاء بعدهم من أهل العلم، وممن عدَّد نساءه الحُسين بن علي وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما وغيرهما كثير[٦٥]. فهذا

---

٦١ سورة آل عمران/ ١٩.

٦٢ سورة آل عمران/ ٨٥.

٦٣ سورة النساء الاية ٣.

٦٤ رواه أبو داود.

٦٥ وهكذا يظهر عملياً من خلال السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، إن التعدد هو الأصل، ولقد كان الأفضل في عصور الخيرية الثلاثة الأولى وهي عصر النبي وعصر التابعين وعصر تابع التابعين،

سيدنا عمر ﷺ يعرض ابنته حفصة على أبي بكر الصديق، مع إن أبا بكر عنده امرأة تدعى أم رومان، ولم تكن زوجته مريضة ولا عاقراً[٦٦].

أن يكمل الرجل النصاب بأربع إذا لم يكن هناك عائق، ومن المفيد أن نعرف أن المال ليس عائقاً إذا اتخذ البساطة والتيسير، لقوله تعالى: ﴿ **إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [سورة النور/ ٣٢]، وفي هذه الآية سر لطيف حيث إنه بكثرة أفراد الأسرة تزداد الإنتاجية ويعم الخير في المجتمع، ويمكن أن يتحول الفقير إلى غني.

٦٦ إن الكلام عن موضوع تعدد الزوجات ونشر المقالات لا يكفي، إن لم يشهد المجتمع تنفيذاً متزايداً لهذه المشاريع المباركة وفق المنهج الإسلامي وتشريعاته. إن عملية التنفيذ وانتشار هذا النوع من الزواج تتطلب وعياً إسلامياً وشيئاً من الحزم والتضحية من الأطراف الثلاثة (الزوج والزوجة الأولى والزوجة الثانية) وذلك لأن العقبات التي تقف في طريق التعدد واستمراره فيما بعد، تجعل هذا المشروع، إما أن ينحرف عن مساره الإسلامي إلى التعدد غير الهادف الموجود في المجتمع، والذي أدى – بسبب الجهل والأنانية وتأثير الإعلام الغربي – إلى امتهان المرأة واحتقارها، واستخدام هذا التشريع بتعسف لصالح الرجل وضد المرأة سواء الزوجة الأولى أم الثانية. والاحتمال الثاني؛ أن ينتهي المشروع بالطلاق، إذا لم تراع هذه العقبات والمعوقات، التي هي مزيج من رواسب التخلف الاجتماعي عبر القرون الماضية، وإفرازات الشيطان والرذيلة عبر الحضارة الغربية المادية والتأثر بها. وعليه فإن الوعي والتجرد والتضحية هي السبيل المضمون، لدعم هذا المشروع وإرساء قواعده في المجتمع. وطبيعي أن يختلف ذلك من طرف إلى آخر، فبالنسبة للرجل عليه أن يعي خطورة وحساسية المشروع وصعوبة تنفيذه، وسط مجتمع مناوئ له وللإسلام ويريد أن ينال منه ومن دينه، وعليه تحمل مسؤولية كبيرة والتضحية بالجهد والوقت والمال، واتخاذ شعار العدل وحُسن المعاملة والمعاشرة تطبيقاً لتوجيه النبي الكريم ﷺ «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» وذلك لتجاوز العقبات والإشكالات التي لابد أن تظهر في المرحلة الانتقالية على الأقل، وهو في كل ذلك مؤمن بأنه يؤدي رسالة ويطبِّق تشريعاً كريماً وسنَّة شريفة لوقاية المجتمع وتحصينه، وتقديم نموذج اجتماعي كريم للبشرية لتتأسى به. أما الزوجة الأولى فان ميدان التضحية أمامها واسع وكبير، فهي تعلم أكثر من غيرها أن الموافقة على هذا المشروع وربما تسهيله لزوجها يعرِّضها لنقد اجتماعي واسع وإلى مقاومة شديدة في داخلها للتخلي عن حق طبيعي من حقوقها الأساسية في الحياة الدنيا من أجل دينها ومجتمعها، ولا تحسب ذلك قليلاً في ميزان الله سبحانه، فالمؤمن كل أمره خير وهذا

المشروع هو نوع من الاختبار والابتلاء لها ولدينها، فإما أن تنجح فتنال رضى الله سبحانه، أو تفشل فتبوء بغضبه. ولها بزوجات النبي ﷺ أسوةٌ حسنة. وكذلك بالنسبة للزوجة الثانية أو الثالثة، فهو الاختبار والابتلاء بأن ترضى أن تكون شريكة ثانية في رجل، دون أن تستأثر به لوحدها كما هو شائع عُرفاً، فعليها مسؤولية القبول والاستعداد لتغيير العُرف الفاسد بعرف ونظام يحبه الله ورسوله ﷺ، كما ينبغي لها أن لا تتشبث بعد الزواج، بصيغة العدل المطلق في كل شيء، لأن مثل هذه التفاصيل لا تنتهي، وهي التي كانت وراء ضمور مبدأ التعدد وانحساره عن المجتمع في الوقت الحاضر، حيث إن ذلك صعب التحقيق ويثير المشاكل، بسبب الأعراف والتصورات الفاسدة والضغوط، التي تُمارَس على المجتمع الإسلامي، ولوجود أعداء متربصين يريدون تشويه صورة المجتمع وإفشال أي توجه إسلامي واقعي نظيف، فالأصل أن يتحرَّى الزوج العدالة في أساسيات الحياة الزوجية، وأن يبذل جهده في ذلك حسب مقدرته والله تعالى رقيب عليه.

ويمكن القول دون مجازفة أن الوفاق والتعاون والواقعية، هي الأساس الذي يضمن للحياة الزوجية التعددية الثبات والنجاح، ولا يتحقق ذلك بدون إيمان، فبالإيمان تضمن الطاعة والتجرُّد والمودَّة والتضحية.. وبناءً على ما تقدَّمَ يمكن الاتفاق على الشروط اللازمة لإنجاح هذا المشروع واستمراره، بما ينسجم مع الواقع والظروف التي تحيط بكل حالة زواج على حِدة وفق ما تراه الأطراف الثلاثة، بحيث لا يخرج الزوج عن مبدأ العدل بين الزوجات، ولا يتعارض مع الدين والشرع في شيء، وفق الشروط والأطروحات الممكنة، والتي تجعل البيت الجديد ذا صلة متينة بالبيت الأصيل وامتداداً وسنداً له، فتتوفر أجواء النمو والازدهار والخير للبيت والمجتمع بشكل عام. أما دور المجتمع أو الطليعة المسلمة فيه فيتمثَّل بشكل أساسي في توفير الأرضية الصالحة لتنفيذ هذه الزيجات، وذلك بالرضى والتشجيع والتكافل وتحمُّل المسؤولية التضامنية في ذلك، فيجب أن يضمن المجتمع زواج المرأة وزواج الرجل على السواء وبأسلوب مشرِّف، وأن يتكافل المسلمون (كما كان الصحابة والمسلمون الأوائل) على أن لا تبقى امرأة بدون زواج (باستثناء حالات معينة) وبأقل التكاليف وأيسر السبل، فقد تزوج الصحابة بسورة من القرآن وبخاتم من حديد..، وأن يكون زواج المطلقة والأرملة أسهل من عملية الطلاق وليس العكس – كما هو شائع اليوم – حيث قل الزواج بكل أنواعه وكثر الطلاق والخلاف بين الأزواج، مما جعل المجتمع مهدد بكارثة يخطط لها الشيطان وأعوانه. إذن يجب أن يساهم المجتمع بشكل حقيقي في تيسير الزواج واعتباره مشروع خير وبركة لمواصلة المسيرة لإعلاء كلمة الله في الأرض ونشر النور والفضيلة في المجتمع البشري، فيتعاون الأزواج والأولاد وبقية أفراد المجتمع لبناء الصرح الإيماني الشامخ، فتسود الألفة

ولا يحقّ للمسلم –سواء أكان أنثى أم ذكَر– الاعتراض على مشروعية التعدد فذلك اعتراض على المشرِّع الخالق الواحد الأحد ﷻ. قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[67]. فكما أن المريض لا يحق له الاعتراض على الصحيح. وكذلك الفقير لا يحق له الاعتراض على الغني، وكذلك المشوّه الخلقة لا يحق له الاعتراض على السليم، وكذلك العقيم لا يحق له الاعتراض على الولود. وهكذا مما لا يعلم حكمته إلا اللّه تعالى، فكذلك التعدد لا يعترض عليه ولا تشوّه صورته أمام الناس، لأن فيه حِكَمَاً وفوائد منها ما نعلمه ومنها ما نجهله. وعندما تمنى بعض النساء ما يخص الرجال من الخصال التي وهبها اللّه لهم حسب مشيئته المحيطة بنا وبعالمنا، نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ

والمودَّة والرحمة بين الأزواج أكثر مما يظنه أتباع الزواج المقدَّس المسيحي اللاهوتي، الذي يجعل الرابطة الزوجية هي نهاية المطاف في الحياة ولا شيء بعدها، فلا تعدد ولا طلاق كما في التشريع المسيحي الكنسي، وانسجاماً مع التصور الغربي عن الوجود والكَون والحياة، وهو تصور أناني ومادي سرعان ما يؤدي إلى تهشم العلاقة الزوجية وتصدعها وفشلها وتغلغل الفساد والانحلال في المجتمع، لخلو هذه الرابطة والمؤسسة الزوجية (في التصور الغربي) من الأهداف العليا الكريمة والطموحات السامية لبناء لبنة المجتمع الأول (وهي الأسرة) على منهج ربَّاني، والتعاون على إرساء قواعد المجتمع القويم. وهكذا فإننا نلمس أبرز خصائص المجتمع الغربي من خلال النظرة التحليلية والاجتماعية له، وفق سياساته مع بقية الشعوب والأمم، وأهم إفرازاته التي اكتوينا بنارها: الحروب العدوانية.. الرذيلة والفساد.. الاستعمار والاستعباد.. العنصرية والاستعلاء.. المادية والميكافيلية.. وغيرها من الصفات والشعارات الهدَّامة، المنافية للفطرة السوية والخُلُق القويم.

٦٧ سورة الأنبياء/ ٢٣.

﴿نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ﴾[٦٨]. والذي يظهر لنا بعلمنا القاصر أن التعدد تقتضيه الحياة على الارض. وهو بالنسبة للإنسان قاعدة وليس استثناءاً، واذا تساهلنا في الحكم فيمكن أن نقول بأنه رخصة مباحة، وهي خاصة لفئة من الناس ممن أعطاهم الله نعمة الدين والعقل والصحة والمال، وفي الغالب أن الرجال لهم النصيب الأوفر من هذه النعم. ولذا جعل التعدد من نصيبهم دون النساء. فلو تفهَّمنا تركيب الرجل النفسي والجسمي والعضوي وما كلفه الله به من العمل، لأدركنا أن الرجلَ وحده المهيَّأ من عند الله للتعدد من دون المرأة[٦٩]. وإليك تفصيل ذلك فيما يأتي:

١. لو جمع الرجل أكثر من امرأة بعقد شرعي لما حصلَ اختلاط في الأنساب بخلاف العكس، فجهاز الرجل التناسلي يؤهله لذلك بخلاف المرأة.
٢. التركيب الجسمي للرجل أصحّ من المرأة في الغالب، فبحكم طبيعة عمله وخلوّه من الحيض والنفاس والحمل والإرضاع فيكون جسمه أصحَّ من المرأة التي قضى الله عليها بالحمل والحيض والنفاس والولادة والإرضاع. والرجل في الغالب يتحكَّم بعقله وبواسطته يستطيع القيام بشؤون امرأتين وثلاث وأربع، وهذا

---

٦٨ سورة النساء/ ٣٢.

٦٩ ومع ذلك فإن عصر النبوة قد شهد تعدد الأزواج بالتتابع أي زواج الأرامل من الرجال ولمرات عديدة، كما حصل مع السيدة أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب، حيث تزوجت من أبي بكر الصديق بعد استشهاد زوجها، ثم تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة أبي بكر، وأنجبت منهم جميعاً، وكذلك عاتكة بنت زيد وأم كلثوم بنت عقبة وأم عمارة الأنصارية وسكينة بنت الحسين، وغيرهن من النساء اللاتي تزوجن عدد من الرجال تباعاً. انظر: كتاب النسب والمصاهرة بين أهل البيت والصحابة، للمؤلف، قسم المصاهرات بين أهل البيت والصحابة.

بخلاف مَن تتحكَّم فيه العاطفة التي يحتاج إليها لتربية الأطفال والحنان عليهم، ولذلك نجد النساء لا يصمدْن أمام المشاهد المؤثِّرة وينسَينَ سريعاً ويبكِينَ لأسباب قد تكون تافهة أو بسيطة، ومن هنا جاءت شهادتها فيما لا تتراكم الخبرة فيه أو لا يطَّلع عليه في الغالب إلا الرجال، على النصف من شهادة الرجال كالبيع والشراء ونحو ذلك.

٣. وشرَّعَ الجهاد بحق الرجال دون النساء حيث الجهاد فيه دماءً وجثث لا يتحمَّل منظرَها كثيرٌ من النساء.

٤. الرجلُ في الغالب يتمكَّن من الإنجاب إلى سنٍّ متأخرة من حياته بخلاف النساء فإنهنَّ يتوقَّفنَ عن الإنجاب في سنّ مبكرة معروفة بسنّ اليأس. فالبعض منهنَّ في الأربعين والبعض الآخر في الخامسة والأربعين والغالب في الخمسين من عمرها.

٥. ان بعض الرجال أعطاهم الله قدرة جنسية زائدة، ومعلوم ما يطرأ على المرأة من حيض وحمل ونفاس، فالتعدد يساعد على حل المشكلة. ويرى بعض العلماء أن يتزوج الرجل أربعاً، وهو منهج الامام أحمد في زمانه. وقال الامام الشافعي في ذلك قوله المشهور: اذا وجدت القدرة وجب التعدد.

٦. لقد ثبت في الإحصاءات الصحية، أن موت الرجال أكثر من النساء، بسبب الحوادث والحروب التي يتعرض لها الرجال أكثر من النساء، مما يترتب عليه بقاء نسبة الإناث أكثر من نسبة الرجال، فلا حلَّ لهذه المشكلة إلا بالتعدد، يضاف إلى ذلك أن نسبة مواليد الإناث أكثر من الذكور، مما يضاعف المشكلة، وليس هنالك علاج لذلك القانون البيولوجي والطبيعي إلا بإباحة التعدد، مع

وجود نسبة قليلة من الرجال لا يتزوجون البتَّة بسبب ظروف النفقة وغيرها، وبعضهم يؤخِّر الزواج إلى سن متأخرة بخلاف الفتاة التي تكون مستعدة للزواج في سن مبكرة، وهي من المسلّمات في علم الاجتماع.

٧. الرجل بحكم اختلاطه بالناس قد يكون كريماً أو عالِماً يبحث الناس عنه لعلمه أو كرمه أو صاحب جاه أو تكون طبيعة عمله يحتاج معها إلى مَن يساعده. فالرجل في تلك الأحوال بحاجة إلى عدد من النساء يتكاثفْنَ في العناية بشؤون الأولاد من جهة، وتقديم الخدمة الكاملة للرجل من جهة أخرى، فالتعدد يحل كثيراً من مثل هذه المشاكلات.

٨. كذلك ما يطرأ على المرأة من عقم أو مرض ونحوهما، من مثل كراهته لها أو حبه لغيرها ونحو ذلك، فأيهما أولى التعدد أم الطلاق؟ الحقيقة أن التعدد أفضل بكثير للمرأة الأولى والثانية. أما الأولى فسلمت من الطلاق والثانية استفادت من هذا الرجل الناضج في دينه وعقله وماله، وربما كانت المرأة الثانية مطلَّقة أو أرملة أو عانساً أو بها عيب خَلْقي ونحو ذلك.

ولقد أورَدَ الكاتب عبد الله الهلالي في كتابه (شُبُهات في طريق المرأة المسلمة) آراء له حول حكمة تعدد الزوجات. ذكَرَ أن في التعدد ضماناً اجتماعياً لعدد من النساء حيث فرض الله سبحانه نفقة المرأة على زوجها، بل إن نفقة الزوجة تتقدَّم جميع النفقات لسائر الأقارب، ولذلك فإن الإسلام يكلِّف في مثل هذه الظروف الزوجَ بالنفقة إلى مجموعة من النساء بل مجموعة من الأسر، ولو عطَّلنا هذا الجانب من التشريع لأوجدنا خللاً اقتصادياً وعَوَزاً لمجموعة من النساء لم يتسع

لهنَّ المجال، وهذا يشكل خطورة اجتماعية وأخلاقية، واقتصادية، بل قد تضطرّ المرأة إلى تكفف الناس، ولربما تسقط أخلاقُها وتتنازل عن شرفها من جرَّاء هذا الخلل الاجتماعي، لكنَّ حكمة الله اقتضت التعدد لرأب هذا الصدع، ولا عجبَ فهذا النظام من لدن حكيم خبير في كتاب أُحكمت آياته ثم فُصِّلت، أما الذين يتباكون على المرأة وهم ألدّ أعدائها، فقد يدرك الكثير منهم هذه الحِكَم، لكنهم أصيبوا بمرض الهوى والطعن بهذا الدين وليعلمُن نبأه بعد حين.

مما سبق يمكن استخلاص بعض حِكَم تعدد الزوجات منها:

- إن المرأة لها سبعة أيام في كل شهر، وأربعين يوماً بعد الولادة، لا يستطيع الرجل مباشرتها، وهو ما يعادل تقريباً ١٢٤ يوماً، يظلّ الرجلُ فيها محروماً من زوجته. فقد تقول زوجةٌ من الزوجات ألا يستطيع الصبر؟.

فنقول لها ولِمَ يصبر وقد شرع الله له ذلك، خصوصاً إذا كان يخاف على نفسه الفتنة فلم لا نحصِّنه بالزواج؟.

- كثرة الأسفار للرجل وهو السفر الطويل ولا يستطيع أخذ زوجته كلما سافر، ولا يستطيع أن يصبر في سفره هذا بدون زوجته فله أن يتزوج بزوجة ثانية، إذا كان يحتاج إلى المرأة في مدة إقامته وتحصنه من الزنا، فزواجه من امرأة ثانية في سفر، خير من أن يشبع ميلَه الجنسي بالحرام. والقضية تدار حول الحلال والحرام، فالحلال تعدد الزوجات والحرام الزنا.
- ولنفرض أن الأولى سليمة من العقم والمرض. نسألها يا مسلمة أين التجرُّد عن الأنانية؟ أين الإيثار؟ أين التضحية؟ أين الأخوَّة الإسلامية؟ ونوجه السؤال

كذلك للمرأة الثانية المترددة في قبول الرجل المتزوج أين الإيثار؟ أين التضحية؟ أين الأخوَّة الإسلامية؟.

- ولربما فتح الله للأولى والثانية والزوج خيراً كثيراً وسعة في الرزق والمال والولد وجمع بينهم إذا علم منهم صدق النية. صحيح أن الأولى والثانية قد يكرهون مثل هذا الزواج، ولكن هل المكروه معلوم نتائجه؟ الجواب (لا)، قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[70]، وقال تعالى: ﴿فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾[71]. أليس تكثير النسل مطلباً شرعياً يساعد الأمة في زيادة الإنتاج الزراعي والصناعي والتجاري، وتُسَدْ بهم ثغور المسلمين وتكثر بهم أمة محمد ﷺ يوم القيامة، وبكثرة النسل نستغني عن الأيدي المخالفة لنا في المعتقد والدين. ولذلك يقول رسولنا الكريم ﷺ: «تزوجوا الودود الوَلود فإني مكاثرٌ بكم الأمم يوم القيامة»[72].

أليس التعدد وسيلةً من وسائل تكثير النسل لهذه الغايات السامية؟ إن المرأة لا يمكن أن تستغني عن الرجل بأي حال من الأحوال مهما عملت، ومهما كسبت، ومهما توصَّلت إلى أعلى المراكز الاجتماعية والثقافية.

مما تقدَّم يتبيَّن لنا أن التعدد أمرٌ يقتضيه النقلُ والعقلُ لمصلحة الفرد والجماعة، فحَريٌّ بالمرأة الأولى والثانية والثالثة والرابعة أن يرضينَ بما قسَمَ الله

---

٧٠ سورة البقرة/ ٢١٦.

٧١ سورة النساء/ ١٩.

٧٢ رواه أبو داود وابن ماجه.

لهنَّ، ومعلوم أنه لا يأخذ أحدٌ من هذه الدنيا شيئاً إلا نصيبه. وحَريٌّ بالمرأة ألا تردَّ الرجل المتديِّن صاحب الخُلُق، سواء كان متزوجاً أم لا. ولقد رسم لنا رسول الله ﷺ المقياس الذي نتَّبعه في ذلك فقال: (إذا أتاكم من ترضَون دينه وخَلُقَه فزوِّجوه، إلاَّ تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ عريض)[٧٣]، ولم يفرِّق بينَ المتزوج وغير المتزوج، المهم الدين والخُلق. وقال: (ثلاثة لا تأخروهنَّ؛ الصلاة إذا وجبت، والجنازة إذا حضَرَت، والأيِّم إذا وجَدَت كفؤاً)[٧٤].

ولما سُئل أحد السلف عمَّن تزوج ابنتك قال: (أزوجها صاحبَ الدين إن أحبَّها أكرمها، وإن أبغضَها لم يظلمْها). دعونا نفترض أن هذه المرأة التي رفضت التعدد، إنها تزوجت برجل يرفض التعدد منفرد، لكنه لا يصلي أو يتعاطى المخدرات والخمور .. أو يسهر الليالي بما لا فائدة فيه، أو يسافر للفساد أو أنه رجل بخيل أو أحمق أو أخرق أو قد تتزوج برجل كفء ثم يتزوج عليها فوقعت فيما هربت منه. ونقولها بحق إن المرأة العاقلة هي التي تقبل برجل متزوج بواحدة أو اثنتين أو ثلاث يكون عاقلاً متديِّناً، خيرٌ لها من رافض التعدد يتصف بما مضى من الصفات السيئة، وخيرٌ لها من أن تمضي زهرة شبابها بدون زوج على أمل فارس الأحلام قد يأتي وقد لا يأتي، فتندم حين لا ينفع الندم. وما قلناه يتضح إذا حكم العقل، وأُبعدت العاطفة. ولذلك جعل الله ولاية المرأة بيد الرجل حتى يكمل النقص الموجود لديها. قال ﷺ: (لا نكاحَ إلاَّ بوَليّ)[٧٥] لذلك فالواجب على الرجال

---

٧٣ رواه الترمذي وابن ماجه.

٧٤ رواه الترمذي.

٧٥ رواه أحمد.

ألاَّ يدخروا وسعاً في تقديم النصح والمشورة لمن جعل الله ولايتها في يده وعليه بذل الجهد في إقناعها بالرجل العاقل المتديِّن، سواء كان معه زوجة أو لا. وعليه أن يصبر في مناظرتها ومقارعتها بالحجَّة حتى يزول الخوف الذي زرع في قلبها نتيجة الافتراءات على سنّة التعدد، بسبب المشاهدة والقراءة التي تشوِّه التعدد ولا ننسى حديث بعض النساء اللاتي مررن بتجربة فاشلة مع التعدد، إما لحمقها أو بسبب ضعف الوازع الديني لديها، فنغَّصت حياة زوجها فطلَّقها، وهذا لا غرابة فيه فقد يظلم وقد يطلّق. ولكن مثل هذا الصنيع أليس يحصل من الذي ليس عنده إلا زوجة واحدة؟ فإذا عرف السبب بطل العجَب، وكلنا يعلم أن الله يحرِّم الظلمَ بشتَّى ألوانه ويحرم ظلم الزوجة ويزداد تحريم الظلم فيمن عنده أكثر من زوجة، ولذلك يقول المصطفى ﷺ: (مَن كانت له امرأتان فمالَ إلى إحداهما دون الأخرى جاء يوم القيامة وشقّه مائل)[٧٦]. إذا ما يفعله بعض الرجال من ظلم زوجاتهم وتنكَّر بعضهم لزوجاتهم الأوائل أمرٌ لا يُقرَّه الشرع ويأثمون بذلك. ولذلك يستحسن للرجل أن يبادر بالتعدد اذا ما توفرت لديه القدرة عليه، مادام أنه في مرحلة الشباب وهذا لصالح زوجته الأولى. حتى يجد في الأولى ما يجده في الجديدة من الحيوية والشباب، ومبادرته ستساعده في العدل وحل كثير من المشكلات. ولقد بيَّن ﷺ وهو صفوة الخَلق التعامل بين الزوجات فقال ﷺ: (اللهمَّ هذا قَسَمي فيما أملك فلا تلُمني فيما تملك ولا أملك)[٧٧]. ومعلوم أن الذي يملكه ﷺ النفقة والكسوة والمسكن وما هو في مقدور الرجل أن يعدل فيه، والذي لا يملكُه الحب ودواعيه، فإنه لا

---

٧٦ رواه أحمد.

٧٧ رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

يُلامُ شرعاً على ذلك، إذا لم يتكلم به أمامهنَّ. فالمقصود هو الميل القلبي الذي لا يتحكم به الإنسان إنما هو إلى الله تعالى، والمهم أن يجتهد المسلم ويتحرَّى العدل ويعقد النيَّة على ذلك، والله عليه شهيد ورقيب حتى نكون خيرَ أمةٍ أخرجت للناس.

انظر إلى وضع الغرب والشرق حينما تنكَّبوا طريق الإسلام، كيف ضلُّوا وأضلُّوا، فمنعوا تعدد الزوجات، وفي المقابل سمحوا بتعدد العشيقات والخليلات، فانتشر الزنا وقلَّ الحياء فتبودلت الزوجات، وامتُهنت الكرامات وتمزَّقت الأسرة وشرَّد الأطفال وكثر اللقطاء وتفشت بينهم الأمراض المزمنة كالإيدز والهربس والسَّيلان والزهري... قال تعالى: **﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**[78].

نصيحة للمرأة المسلمة:

أختي المسلمة؛ عليكِ أن ترضَي بالتعدد فهذا حُكمُ الله في خلقه وهو أعلم بما يصلحهم، قال تعالى: **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾**[79]. لا أقول لكِ اطلبي من زوجِكِ أن يتزوج عليكِ، لأن هذا مُخالف لفطرتكِ، ولكن أقول إنه ليس لكِ أن تُعارضيه، وكل ما هو لكِ طلبُ العَدل فقط، إذا ما قرر الزواج بامرأة أخرى. وأسألكِ بالله؟ كيفَ تسنى لكِ أن تعرفي أن زوجكِ لن يعدلَ بينَك وبينَ الزوجة الثانية، وهذا لم يحصل بعد؟.

---

٧٨ سورة النحل/ ٣٣.

٧٩ سورة المادة/ ٥٠.

أطَّلعتِ على الغيب؟ أم إنه تعنَّتٌ وغُرور ورفضٌ لقَبول الحقّ. إيَّاكِ يا أختاه والتأثر ببعض التجارب الفاشلة التي خاضها بعض الحمقى وضعيفي الوازع الديني من إهمال زوجاتهم والإضرار بهنَّ وعدم المساواة والعدل في الحقوق بعد الزواج الثاني، فإن هذه الصورة لا يقرّها دينُنا الإسلامي، وليس حالُ المسلمين دليلاً على الإسلام. فلا تبادري بطلَب الطلاق من زوجكِ (وهو أبغض الحلال عند الله) من غير مبرِّر فإنكِ لن تأخذي أكثر مما قسَمَ الله لكِ. وإياكِ إذا علمت من زوجكِ رغبةٌ في نكاح أن تقفي في وجهه، فتسهِّلي عليه طريق الحرام، لإنكِ تصبحين شريكته في أي إثمٍ؛ لأنك كالدَّالة عليه، فكم من الزوجات الخبيثات مَن يكون عندها زِنا زوجها واتخاذُه العاهرات خليلات، أهون عندها من زوجة ثانية.

ولكِ في نساء النبي ﷺ والصحابيات الجليلات أكبر قدوة في ذلك، فقد عدَّد رسول الله ﷺ وهو معلِّم البشرية وكذلك الخلفاء الراشدون وعدد كبير من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وكثير من الذين زوَّجوا بناتهم في هذه الأيام لِمَن معه زوجة أخرى، أثبتوا أن بناتهم في حالة عائلية سعيدة، أكثر ممن تزوجت بزوج ليس معه زوجة.

وأتوجَّه الى أخي الزوج بنصيحة مماثلة وأقول له: بأن يتَّقي الله وأن لا يجعلَ الغاية من التعدد فقط إشباع الغريزة الجنسية، بل أن تكون نيته خالصة لله في زواجه مقتدياً أيضاً بالرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين. أسأل الله تعالى أن يُجنِّبنا وإياكم المعاصي والفتن ما ظهر منها وما بَطَن، وأن يجلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه..

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كواكب حول الرسول ﷺ:

إن أخطر ما في حياة البشر أفراداً وجماعات من علاقات هي علاقة الرجل بالمرأة، كانت وستظل هذه العلاقة قبل وبعد أي علاقات اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية، إذ هي قلب ولب كل الصور من العلاقات، فكان من الطبيعي أن تحظى بعناية خاصة من الرحمن، الذي يمن علينا أن هدانا للإيمان، والذي تفضل علينا من خلال رسوله الأمين بإرشادنا إلى كل ما يقابلنا من دقائق هذه المعاملة، بصورة عملية شافية لكل من يرجو الله واليوم الآخر، وذلك أن السنة النبوية ليست قاصرة على قول النبي ﷺ فحسب، بل هي تشمل قوله وفعله وتقريره، وكل هذا من التشريع الذي يجب على الأمة إتباعه، والفعل أقوى من القول والتقرير، والقول والتقرير مجال للاختلاف حول السنة والمعنى والمناسبة، ويُذكر منه ويُنسى ويضعَّف ويقوَّى، ولكن ماذا نقول في الفعل المشاهد الملموس الحي، الممتد عبر الأشهر والسنين، في السراء والضراء والسلم والحرب، هل يمكن أن يختلف اثنان في أن الرسول ﷺ قد تزوج فلانة أو فلانة من أمهات المؤمنين، أم يختلف اثنان في أن عائشة رضي الله عنها كانت بكراً أو كانت صغيرة، أو أن خديجة رضي الله عنها كانت تكبره سناً أو أن صفية رضي الله عنها هي بنت حيي بن أخطب زعيم اليهود، أو أن مارية القبطية جاءت من مصر.

إذاً تكون التربية والتوجيه والإرشاد والهداية من خلال فعل الرسول ﷺ، ومن خلال حياته الزوجية، التي تشمل جميع صور علاقات الرجل والمرأة، هي من أعظم نعم الله علينا، ومن أبعدها مجالاً عن الضعف والاختلافات، ومن أقواها

حماية لحقوق المرأة وواجباتها في جميع أحوالها الحياتية صغيرة كانت أم كبيرة، غنية أم فقيرة، ثيباً أم بكراً، أرملة أم مطلقة، جميلة أم عادية، ودوداً ولوداً أم عجوزاً عقيماً، حرة أم أمة... إلى آخر الظروف التي ستعيش فيها نساء العالمين، حتى يكون لكم ولهن وللمؤمنين وللمؤمنات أسوة حسنة في فعل الرسول الأمين مع أمهات المؤمنين، اللائي شملت أحوالهن كل ما يمكن أن تتعرض له أنثى في أي وقت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لنضرب سوراً حول أي حي من الأحياء في أي بلد من البلاد، إسلامي كان أو غير إسلامي، متحضر تجرى فيه القطارات تحت الأرض أو فوقها، والطائرات في سمائها، أو متخلف تمشي عليه الدواب، ثم لنجري إحصاء على الطبيعة، بحثاً ميدانياً باللغة التي تستهوينا، عن كل العلاقات الزوجية داخل هذا الإطار، بحث وصفي لا أكثر، سنجد في كل الأحوال صوراً متشابهةً، ولن تخرج عن رجل متزوج بمن يحبها وتحبه، أو بمن يكرهها أو تكرهه، أو متزوج ممن هي في مثل سنه أو بمن تكبره أو تصغره، أو بغنية أو بفقيرة، أو بمتعلمة أو بأمية، أو بذات حسب أو بالمقطوعة من الأهل، أو بنت أصدقائه أو بنت أعدائه، أو بمطلقة أو بمن لها أولاد، أو بقريبة أو ببعيدة، بالمرأة العاقر أو الولود، وإذا سألنا كلاً منهم كيف خطبت زوجتك وكيف أقمت الفرح، وكيف أمهرتها، وكيف تسكن الآن، وجدنا في كل حي صوراً شتى لا صورة واحدة.

ان هذه الشبكة الخطيرة الواسعة من العلاقات، فيها ما يخفى أكثر مما يظهر، وما بينهما وبين الله فيها أكثر مما بينهما وبين الناس، قال تعالى: **﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾**[80].

هذه العلاقة المتشعبة الممتدة الجذور في حياة كل أسرة، المتشابكة الفروع المغدقة بالثمر، كيف يهتدي فيها النساء والرجال على حد سواء إلى أقوم السبل وأقوى الروابط، وأوضح الحقوق وأسعد صور الحياة في الدنيا والآخرة... كيف سبيل كل منهم إلى شيء من ذلك، ما لم يكن في حياة الرسول العملية الجواب الشافي، وقد آتانا الله ﷻ بالجواب الشافي وزوج رسوله الأمين الزوجات اللائي أحطن بجميع صور العلاقات، لنأخذ من حياتهن الجواب والأسوة الحسنة إنه تزوج من أجلنا، فبعد أن بلغ الرسول أكثر من خمسين عاماً حمله ربه هذه الأمانة رحمة بضعفائنا، وهدياً لحكمائنا صلى الله عليك وسلم يا رسول الله، ما أعظم ما قدمت إلى البشر من خير وهم لا يعلمون، ويأتيك منهم الإساءة تلو الإساءة، فجهل الصديق ككيد العدو، فكلاهما يسيء بعلم أو بدون علم.

ألست أنت القائل ما تزوجت شيئاً من أزواجي، ولا زوجت شيئاً من بناتي، إلا بوحي من الله تعالى، ماذا تقول لنا أوضح من هذا، ولكن معذرة فإننا أصبحنا أمة لا تقرأ إلا قليلاً من أحاديثك، فهي تدافع عنك بجهل فتسيء حين تظن أنها تحسن، أو تعجز عن الدفاع عنك فتمعن في الإساءة، وذلك يجرهم إلى

---

[80] سورة النساء/ ٢١.

الإساءة إلى كتاب الله أيضاً، ويحق لك أن تشكونا إلى ربك، كما أبلغنا ربنا في القرآن، في قوله تعالى: ﴿وقال الرسول يا ربّ إنّ قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾[81].

لندخل إلى موضوعنا من مداخل شتى:

أولاً: الباعث على الزواج في حياة البشر، والهدى في ذلك من باعث النبي ﷺ على كل زواج.

ثانياً: صور الخطبة وعقد القران في حياة البشر، والهدى في ذلك من فعل النبي ﷺ عند كل زواج.

ثالثاً: صور الدخلة والولائم، وأثاث البيوت والسكن في حياة البشر، والهدى في ذلك من فعل النبي ﷺ.

رابعاً: صور من اختلاف الحال والظروف في حياة البشر، والهدى في ذلك من حياة النبي ﷺ، ومن حياة أمهات المؤمنين معه وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

وبعد ذلك أوجه سؤالاً واحداً بعد أن ننتهي من الاستعراض. هل يعلم أحد منكم حالة من العلاقات الزوجية في حياة الناس تخرج عن هذه الصور، أو لا يمكن القياس عليها، فإن أجبتم بالنفي عرفتم حكمة هذا التعدد في حياة الرسول، إنه تعدد لنا ولدين الله ولعباده المؤمنين، لا لشخص الرسول ﷺ . فهل وعينا الدرس الأول؟.

---

[81] سورة الفرقان/ ٣٠.

بواعث الزواج في السيرة العطرة

الزواج يعني السكن والمودة والرحمة، وهو ما تعبر عنه بالحب، ويبقى بعد ذلك السؤال قائماً وهو: لماذا هذه المرأة بالذات دون غيرها؟.. وأي منهن يمكن أن تجد معها السكن والمودة والرحمة؟. نعم لماذا اخترت هذه بالذات، أو لماذا اختارها قلبك؟ أمن أجل المال! أمن أجل الحسب! أمن أجل الجمال! أو من أجل الدين... لماذا وماذا وراء هذا الاختيار؟ وهو ما نعني به بباعث الزواج، أي السبب البعيد والهدف الذي يسيطر على حياتك من قبل التفكير في الزواج، هنا يختلف الأفراد في بواعثهم، بل وتتعدد البواعث أحياناً في الشخص الواحد، تبعاً لتنوع أهدافه على قدر موقعه من المسؤولية في تيار الحياة المتدفق، وعلى قدر الثغرة التي يقف عليها في جبهة القتال العريضة، مع الباطل المستأسد على هذه الأرض، مازلت أتكلم عن تصور البواعث لدى المؤمنين، لكن وماذا عن غير المؤمنين؟ وماذا عن الشياطين، عندما تتعدد بواعثهم وتعظم أهدافهم الشيطانية... إن لهم زواجاً أيضاً على مستوى أغراضهم الخبيثة. إنهم يجدون في علاقة الزواج بمعناه الجنسي لا بمعناه الكريم أيضاً وسيلة إلى أهدافهم العدوانية.

الزواج سلطة أعطاها الله للبشر، عملة ذات وجهين يستعملها المؤمنون في الخير وفي تحقيق الأهداف الخيرة، ويستعملها الشياطين في حروبهم مع دين الله على مدار العصور.

من هذا المنطلق ذهب الصليبيون إلى التتار ووجدوا في سلاح المصاهرة فرصتهم لتقوية الحلف ضد المسلمين بعد أن أعيتهم الحيل، فزوجوا أخت إمبراطور

بيزنطة لملك التتار، فقوى الحلف وهجموا على العالم الإسلامي، وحطموا كل شيء فيه، لولا أن الله تدارك المسلمين برحمته عندما مات ملك التتار، وقتل ابن أخت قائد المغول (يلبغا).. فظن أن الصليبيين يتحينون الفرص لنقض الحلف بعد موت الملك فتخوف منهم، وطالب برهائن من قوادهم قبل الهجوم المشترك على مصر، فتوجسوا من طلبه فانفصم الحلف، كل ذلك قد حدث على صعيد العدو بفعل الله، عندما كان المسلمون يأخذون بأسباب النصر على الصعيد الآخر بقيادة العز بن عبد السلام... بهجر المعاصي وتطهير القلوب، وتوحيد الصفوف والإنابة إلى الله، فخرجوا على رأس جيش مؤمن تم له النصر في معركة عين جالوت.

لم ييأس الصليبيون وعاودوا حملاتهم على الشام، وتمت لهم الغلبة المؤقتة، وأقاموا خمسة ممالك، وعاد المسلمون فأخذوا بأسباب النصر فهزموا الصليبيين في معركة حطين بقيادة صلاح الدين الايوبي واستعادوا بيت المقدس.

أعاد الصليبيون تقدير الموقف وغيروا خطتهم الحربية، بحيث يكون التركيز على مصر أولاً ليستقر ملكهم في الشام ثانياً، فرفعوا شعار ((إلى بيت المقدس عن طريق مصر)) وتحولت الحملات الصليبية إلى سواحل مصر، بدل سواحل الشام وهالتهم الهزائم المتتالية، وفكروا في استخدام وسائل أخرى غير وسيلة القتال بأن يتركوا الأمة الإسلامية غارقة في أحلام الاستقرار ويكيدوا لها كيداً، بأن يجففوا من حولها منابع الحياة، ومكروا ووجدوا حيلاً جديدة في تحويل طرق التجارة القادمة من الشرق حتى لا تمر على مصر، بل تقطع طريقاً برياً طويلاً يمر من تحت بحر قزوين إلى ميناء الإسكندرونة على البحر الأبيض، ولكن لم تنجح الفكرة وكلفتهم

الكثير، وظلت مصر قوية، وبحثوا عن السبب في استقرار قوة مصر فقدروا أن السبب في ذلك هو استمرار تدفق النيل، إذن عليهم أن يحولوا مجراه ووجدوا في سلاح المصاهرة فرصتهم مرة أخرى، فأرسلوا أميراً فرنسياً فتزوج من أميرة حبشية، وعقب الزواج تدفقت العُدد والآلات لإجراء التحويل، ولقطع شريان الحياة، لولا أن المشروع استحال فنياً بفضل الله ورحمته، لا بفضل أحد من الغارقين في المعاصي.

وتجري عجلة التاريخ وتدخل الحملة الفرنسية مصر، وتلاقي من الويلات ما تلاقى إلى أن خرج نابليون بليل، وقُتِل خليفته كليبر، وجاء مينو خليفة كليبر ووجد في سلاح المصاهرة مطمحاً لتثبيت أقدام الحملة، فتزوج من زينب البكرية، وأعلن الإسلام ليكسب قلوب المصريين.

ولننتقل مرة واحدة إلى واقعنا الحديث حيث تقدم الفاتنات أعراضهن رخيصة في عمليات التجسس المتبادلة بين الدول، وكل الدول تجعل الجنس على رأس أسلحتها في الحرب الخفية الدائرة بينها.

وشهرة تجار العرض من اليهود معروفة على مدار التاريخ، وحتى اليوم، حتى رويت عنهم الأعاجيب، ويكفي أن نعلم من قصة حياة معظم الزعماء والقادة الكبار أن أمه كانت يهودية، أو أن زوجته يهودية، حتى نوقن أن الأمر لم يكن مجرد اتفاق بل وراءه سر رهيب لهدف بعيد، أليس على قمة احتفالات إسرائيل إحياء ذكرى سالومي، المثل الأعلى للغانيات التي تزوجت من الملك المعادي لليهود (مع التجوز في كلمة تزوجت) ثم نجحت وهي في أحضانه أن تغريه بقتل سبعين

ألفاً من خصوم اليهود في ليلة واحدة. وكذلك قبل ذلك قصة اليهودية ايستر التي تزوجت أو بالأحرى أغوت ملك الفرس كورش بجمالها وجسدها، ثم أقنعته بقضية شعبها بعد السبي البابلي الشهير، وبضرورة نصرتهم على خصمهم واسقاط بابل عدوتهم التاريخية، لاعادة المجد الى أورشليم ووجودهم حولها في فلسطين. وهو ما حصل فعلاً، فقد غزا كورش بابل وأسقط الدولة البابلية الكلدانية، وساعد اليهود في العودة الى الأرض المقدسة واعادة بناء دويلتهم وهيكلهم كما يزعمون. ومنذ عدة أعوام قرأنا عن احتفالات مماثلة في إسرائيل، تكريماً لامرأة قدمت أجلَّ الخدمات بافتتاح بيت للدعارة بجوار مبنى الأمم المتحدة، جمعت فيه فاتنات العالم للإيقاع بمندوبي الأمم لصالح سياسة إسرائيل. وهكذا تلعب هذه العلاقة بين الرجل والمرأة دوراً سياسياً كبيراً في تاريخ البشر، سواء في صورتها المشروعة وهو الزواج، أو في صورتها غير المشروعة وهي البغاء، وهذا أحد البواعث العديدة في علاقة الرجل بالمرأة.

فأي غرابة أن نفتح موضوعنا ببواعث الزواج في حياة رسول الله، الذي علمنا كيف يؤدي الزواج رسالته في جانب الإيمان، ومن تكريم الله للإنسان أن ينأى به عن عالم الحيوان، فلا يجعل العلاقة في حد ذاتها هدفاً وإنما باعتبار غايتها فما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل، ومن تكريم الله للإنسان أن يثيبه على كل حب يكون موصلاً إلى الله لا قاطعاً عنه، وحذرنا الله تعالى من الحب الذي يقطع ويشغل عن الهدف الكريم «فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» ويحذرنا الله في قوله تعالى:

﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[82]. وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[83]، لذلك يقول رسول الهدى ﷺ: (تعس عبد المرأة تعس عبد الدرهم تعس عبد القطيفة) ويقول: (فاظفر بذات الدين تربت يداك) لأنها هي التي تعين على الأهداف الصحيحة.

ادخل على الزواج بالبواعث الصحيحة — فتكون زوجتك هي خير ما رزقت في دنياك. لقد قَبِلَ الرسول ﷺ الزواج من خديجة رضي الله عنها، التي اشتهرت في قومها بالشرف والعقل والشخصية، وحسن التدبير والعفة، وأنعم بذلك باعثاً، قبل باعث المال والجمال، وفوق اعتبار السن... الباعث في زواج الرسول الكريم من سودة بنت زمعة لما كلمته خولة بنت حكيم السلمية ﷺ وعرضت عليه عائشة، قال: لكنه من للبيت يرعى شؤونه ومن لبنات الرسول يخدمهن؟ فذكرت له سودة بنت زمعة، التي استشهد زوجها وتعاني الوحدة والاضطهاد، والتي تكبر الرسول لخمس سنوات وكان عمرها حين تزوجها ٥٥ عاماً، ولم تكن جميلة، فكان انشغاله برعاية شؤون البيت وخدمة البنات وفضلاً عن ذلك، تخفيف عداوة قومها

---

[82] سورة التغابن/ ١٤.

٨٣ سورة التوبة/ ٢٤.

بني عبد شمس أعداء الرسول وأعداء بني هاشم هو الباعث الأول، وقد خفف بالفعل قومها من عداوته ﷺ وأسلم الكثير من أهلها لذلك، وجد في حياته باعثين في وقت واحد فكانت سودة لهذا الغرض، وكانت عائشة رضي الله عنها لما يتوقع من ورائها من خير لدين الله، قبل أن يخفق نحوها قلبه بحب، أليست صغيرة ولكنه رآها في المنام عدة مرات عرضها عليه جبريل عليه السلام في قطعة حرير خضراء قائلاً: إنها زوجتك في الدنيا وفي الآخرة، فكشف الغطاء فإذا هي عائشة، فتعجب وقال: إن يكون هذا من عند الله يمضه، وأخذ بنصيحة خولة عندما قال لها عن عائشة أنها صغيرة، قالت تخطبها اليوم إلى أبيها ثم تنتظر حتى تنضج.

وتأتي حفصة بعد عائشة إكراماً لأبيها عمر بن الخطاب، وما أوجز قول عمر في كشفه عن حكمة هذا الزواج وكرم الرسول فيه، حين يقول لابنته عندما سمع أنها تغاضب رسول الله: يا بنية تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله، يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها وحب رسول الله ﷺ لها، والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك، ولولا أنا لطلّقك... وقال لها ذات مرة أين أنت من عائشة وأين أبوك من أبيها.

ويوضح القرآن الكريم باعث الزواج من زينب بنت جحش رضي الله عنها، وأنه إبطال عادة التبني المنتشرة في الجاهلية، ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا**

زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾[84].

أما زينب بنت خزيمة التي كانت تبلغ من العمر ٦٣ عاماً حين تزوجها الرسول، والتي استشهد زوجها في أول مبارزة في بدر، ولم يكن لها أحد يرعاها من بعده، ولا يقبل أحد في العادة على الزواج من امرأة عجوز، ولو حدث في عصرنا لتهكمنا على من يقدم على مثل هذا الزواج، لكن الرسول بفعله هذا يسمو بتصوراتنا بالعلاقة الزوجية عن أن تكون دائماً من أجل الجنس، وأن تكون العلاقة من أجل معاني أخرى أكرم، كأن يكون للمرأة المسنة عائلاً، أو أن تأنس برجل، وألا تمضي ليلتها مطمعاً للصوص، وأن تجد من يخدمها من أبناء غيرها من الزوجات الفتيات، وأن يرد لها جميل في كهولتها ولو بكرامة انتمائها إلى الحياة الأسرية، أليس هذا خير من مؤسسات العجزة، ألم تقل سودة المسنة التي كانت في مثل سن زينب بنت خزيمة لرسول الله عندما فاتحها في الطلاق: والله يا رسول الله ما بي إلى الزواج من حاجة، ولكني أرجو أن أبعث يوم القيامة زوجة لرسول الله، وأتبرع بيومي لعائشة، وعاشت سعيدة في بيت الزوجية، وعلى أمل أن يكون الرسول زوجها في الجنة، دون أن يكون بينها وبين الرسول ما يكون بين الرجل والمرأة.

ألا يمكن بمثل هذا أن تصحح المرأة العجوز الذي فاتها حظها في الدنيا، حيث تكون قد تزوجت بمن ليس كفء لها فتقيم علاقة زوجية وهي في سن متقدم

---

٨٤ سورة الأحزاب/ ٣٧.

لا لهدف في الدنيا وإنما لتكون زوجة لآخر يوم القيامة، ألا تصحح القيامة نقائص الدنيا. رحمك الله يا بن الخطاب حين قلت لمن أراد أن يطلِّق زوجته لأنه لا يحبها: فأين التذمم وحق الولد[85].

أما أم سلمة هند بنت أمية ذات الأطفال الأربعة، فلم يكن لها كذلك بعد استشهاد زوجها أحد من أهلها، فمن يدخل عليها لرعاية الأيتام، ومن يكفل الأطفال الأربعة، لاشك أن في مجتمع الصدر الأول من يسارعون إلى هذا الخير، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[86]. يوضح القرآن لنا باعثاً كريماً على سبب الزواج الثاني أو الثالث أو الرابع، وهو الإقساط في اليتامى لرفع الحرج، وتنشئة الأطفال في أجواء صحية، ولتنقية المجتمعات من الأمراض الاجتماعية، كقطع الرحم حين يتحرج الناس من الدخول على الأيتام، أو ينشر القيل والقال، وأكرم برعاية الأيتام من باعث كريم سنه الرسول، فضلاً عما ينطوي زواجه منها على بواعث أخرى في علم الله.

أما الباعث في زواجه ﷺ أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان فأوضح من الشمس، فهي أولاً بنت أبي سفيان حامل لواء العداء في حينه، وهي ثانياً من قبيلة بني عبد شمس أعداء بني هاشم التقليديين، وقد كشفت حوادث التاريخ فيما بعد عن بركة هذا الزواج على مستقبل الدعوة، لذلك لم يكن عجيباً أن الرسول ﷺ

---

٨٥ انظر: كتاب أخبار عمر وابن عمر/ الشيخ علي الطنطاوي.

٨٦ سورة النساء/ ٣.

يستخدم فكرة الزواج في كسب قلوب أعدائه، فنراه يوصي قواد سراياه بالزواج من بنات شيوخ القبائل التي وجههم إليها، فقد دعا النبي ﷺ عبد الرحمن بن عوف وقال: تجهَّز فإني باعثك في سرية، فخرج عبد الرحمن حتى لحق بأصحابه فسار حتى دومة الجندل، فلما دخلها دعاهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الثالث أسلم الإصبغ بن عمر الكلبي، وكان نصرانياً، وكان رأسهم، فكتب عبد الرحمن مع رجل من جهينة يقال له رافع بن مكيث إلى النبي ﷺ يخبره، فكتب إليه النبي ﷺ، أن تزوج ابنة الإصبغ، فتزوجها، وهي تماضر التي ولدت له بعد ذلك أبا سلمة بن عبد الرحمن[٨٧]. ولو تصاهر إخواننا في شمال السودان ذو الأصل العربي بقبائل الجنوب من الزنوج لانحلت مشكلة جنوب السودان من أقصر الطرق... كما يقول الكثير من السودانيين سواء في الشمال أم الجنوب.

لذلك كان أمر الزواج من أم حبيبة واضحاً على أبي سفيان عندما قال عن النبي بعدما سمع من زواجه ببنته: (هذا الفحل لا يجدع أنفه).

أما الباعث في الزواج من صفية بنت حيي رضي الله عنها، ومارية القبطية رضي الله عنها، فقد ثبت أنه خيّر صفية بين الإسلام والعتق فالزواج، أو الذهاب إلى أهلها، فاختارت الإسلام والزواج من رسول الله، أما مارية فقد جاءته هدية من المقوقس عظيم القبط، واختلف المؤرخون في إسلامها وهل لإفرادها بسكن بعيد عن جميع زوجاته سبب من أسباب عدم إسلامها، المهم أنها ولدت إبراهيم عليه السلام، وكانت مثلها مثل صفية سبباً في إسلام الكثير من قومها، فقد أوصى الرسول بقبط

٨٧ حياة الصحابة/ الكاندهلوي، دار العلم ١٣٨٨ / ١٩٦٨، ج١ ص١٧٤.

مصر قائلاً: الله في أهل الذمة، أهل المدرة السوداء السحم الجعاد، فإن لهم نسباً وصهراً.[88]

تنوع الخطبة في سيرة النبي ﷺ

لو أن الرسول ﷺ كان قد تزوج امرأة واحدة لاعتبرنا الطريقة التي خطب بها أو عقد قرانه بها حتى اليوم هي الطريقة الوحيدة الشرعية، وما عداها خطأ وعدوان، ولتبادلنا كالعادة تهم الفسوق والمروق وربما والكفر أيضاً، ولكن الله خفف عنا في هذا الجانب من العلاقة الإنسانية بين الرجل والمرأة، بأن جعل رسوله قدوة لنا في فعله، وقد نوع فعله في كل حالة من حالات الزواج، ليكون في ديننا فسحة، وإلا سيطرت علينا جاهليات لا يعلم عواقبها إلا الله، وإن كنا للأسف حتى اليوم، وبعد استعراض خطبة الرسول لكل زوجة، سترون أن بعضها لا نجرؤ على فعله، وبعضها إن فعلناه اتهمنا أو قتلنا.

الصورة الأولى:

لنبدأ بخديجة رضي الله عنها — مَنْ مِنْ نساء اليوم تجرؤ أن تخطب لنفسها، حتى ممن يدعين التقدم والانسلاخ من كل دين من نساء الغرب، تظل الواحدة مترقبة الرأي الأخير لصديقها فيها، وتخجل أن تطلب منه إتمام الزواج، فكيف بالنساء المسلمات المؤمنات العفيفات، وكيف ببنات العائلات وسيدات البيوت، هل سمعتم أو سمع أي منكم في حياته عن امرأة واحدة أرسلت إلى رجل

---

[88] انظر للتفصيل حول الموضوع: كتاب كواكب حول الرسول وتعدد الزوجات/ د. عبد الحليم خفاجي.

أعجبها فقالت له: «يا ابن العم إني قد رغبت فيك لقرابتك وشرفك وسامي منزلتك وقدرك» إن خديجة أم المؤمنين فعلت ذلك، وهي التي قالت ذلك ونحن اليوم ننكر على من تفعل ونرميها بالتهم، وفي رواية أنها أرسلت إليه نفيسة. قالت: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟ قال: ما في يدي شيء... قالت: فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة... قال: ومن؟. قالت: خديجة... قال: فإن وافقت فقد قبلت وشاور الرسول أعمامه فوافقوه، وتقدم عمه حمزة فكلم عمها، ثم أحضر رؤساء قريش يتقدمهم أبو طالب لعقد القِران، فكان لسان حالهم المتكلم الخاطب قال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئ ضئ معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وجعل لنا بيتاً محجوباً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكّام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوازي رجل إلا رجح به، فإن كان في المال، فإن المال ظل زائل وأمر حائل، ومحمد من عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وله فيها... رغبة ولها فيه مثل ذلك.

وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالي ٢٠ بكرة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطب جليل.

وقام ورقة بن نوفل وقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم، فاشهدوا علي يا معشر قريش، بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار ثم سكت، فقال أبو طالب قد أحببت أن يشركك

عمها. فقال عمها اشهدوا يا معشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد...

الصورة الثانية:

أما الصورة الأخرى من الخطبة فكانت بعد وفاة خديجة رضي الله عنها عندما دخلت عليه خولة بنت الحكيم وقالت: كأنك يا رسول الله تجد لفراق خديجة بنت خويلد وحشة... قال: أجل والله، كانت ربة بيت وأم عيال، فعرضت عليه الزواج فقال: ومن بعد خديجة.

قالت: إن شئت بكراً، وإن شئت ثيباً، قال: فمن البكر قالت: عائشة بنت أحب الناس إليك، قال: لكنها ما تزال صغيرة يا خولة قالت: تخطبها اليوم إلى أبيها ثم تنتظر حتى تنضج... قال: فمن الثيب فذكرت له سودة بنت زمعة، المجاهدة الصابرة، التي استشهد زوجها وتخشى اضطهاد قومها، ووافق مسعاها ما سبق أن رآه ﷺ في منامه بخصوص عائشة، عندما عرضها عليه جبريل عليه السلام مرتين في قماش من حرير أخضر. ويقول له جبريل: هذه زوجتك في الدنيا في حرير أخضر.. هذه زوجتك في الدنيا وفي الجنة، فيكشف عنها فإذا بها عائشة، فتعجب وقال إن يكن هذا من عند الله يُمضه، وجاءت خولة لتؤكد له بهذا أن لله إرادة في هذا الأمر، فيرسلها إلى بيت أبي بكر خاطبة وإلى سودة خاطبة. وبعد أن ذهبت إلى بيت أبي بكر، وزفت إليهم النبأ السعيد، ذهبت إلى بيت زمعة قائلة لها: ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة يا سودة[٨٩]؟ قالت: وماذا يا خولة... قالت:

---

٨٩ توفي زوجها السكران بن عمر الأنصاري من هجرة الحبشة الثانية.

أرسلني رسول الله أخطبك اليه.. قالت سودة: وددت، ادخلي على أبي فاذكري له ذلك... فدخلت عليه... فقالت: إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسلني أخطب اليه سودة فصاح الشيخ... كفء كريم فماذا تقول صاحبته... قالت تحب ذلك. فسألها أن تدعوها إليه، فلما جاءت تلقاها قائلاً: أي سودة زعمت هذه أن محمد بن عبد الله أرسل يخطبك، وهو كفء كريم أفتحبين أن أزوجكه. قالت: نعم. فأرسل زمعة إلى خولة أن تدعو له محمداً.

والآن نحن أمام صورة جديدة للرسول أي للواسطة بين الطرفين لإتمام الخطبة، هنا وهناك امرأة مؤمنة لا حرج في ذلك. ليس هذا عيباً ولا دخولاً للبيوت من أبواب خلفية، ألا يكون الكلام بين الرجال مباشرة من البداية، بل الكلام كله كان بين النساء، من خولة لسودة ثم إلى أبيها. من خولة لأم رومان زوجة أبي بكر ثم إلى أبي بكر. أكثر من ذلك أن يخطب الرسول اثنتين في وقت واحد... نعم لأنه لا ينافق، فلكل واحدة مهمة معينة في حياته، ورسالة ستؤديها، لا يحب أن يتخذ لأهدافه زوجة واحدة، والباقيات سكرتيرات أو خليلات، لا بأس من خطبة اثنتين في وقت واحد. هل يجرؤ رجل مسلم على فعل ذلك اليوم، حتى مع قدرته البدنية والمالية والدينية. مؤمن اليوم أضعف من ذلك، إنه مؤمن كلام ودموع كالنساء، ومؤمن بلاغة وخطب طويلة لا تنتهي، وفعل قليل، وماذا أيضاً في هذا النوع من الخطبة من دروس؟ فيه أنه دخل بسودة بنت زمعة وأرجأ الدخلة بعائشة حتى تنضج فشّرع لنا هذه الفترة الزمنية بين الخطبة والدخلة لنرى إن حدثت في حياة أي منا، كيف يكون سلوكه الرشيد فيها.

وأيضاً لنتعلم من أبي بكر حينما أرسل عائشة بتمر إلى الرسول ليراها.

أخرج الفشني في شرح الأربعين النووية، روى أن النبي ﷺ لما خطب عائشة من أبي بكر قال: يا رسول الله إنها صغيرة لا تصلح لك، ولكن أرسلها إليك فإن كانت تصلح فهي السعادة الكاملة.

فقال: إن جبريل أتاني بصورتها على ورقة من الجنة، وقال: إن الله زوجك بهذه، قال: ثم ذهب أبو بكر إلى منزله وملأ طبقاً من تمر وغطاه، وقال: يا عائشة اذهبي بهذا إلى رسول الله ﷺ وقولي له يا رسول الله هذا الذي ذكرته لأبي بكر، إن كان يصلح فمبارك عليك، وكان سن عائشة إذ ذاك ست سنين، قال: فلما مضت عائشة دخلت على رسول الله ﷺ وبلغته الرسالة، فقال: قبلنا، وجذب طرف ثوبها، قالت: فنظرت إليه مغضبة، ودخلت على أبي بكر فأخبرته بما وقع فقال لها: وماذا قال؟. قالت: قال نعم وعلى بركة الله.

فقال: يا بنية لا تظني برسول الله ﷺ ظن السوء. إن الله تعالى زوجك به من فوق سبع سماوات، وزوجتك إياه في الأرض، قالت عائشة رضي الله عنها: فما فرحت بشيء أشد من فرحي بقول أبي بكر قد زوجتك من رسول الله ﷺ [٩٠].

٩٠ من كتاب روضة الرياحين في حكايات الصالحين (على هامش كتاب عمدة التحقيق في بشائر آل الصديق) الطبعة ٢. ١٣٧٤– ١٩٥٥ مطبعة مصطفى الحلبي.

الصورة الثالثة:

هيا بنا إلى صورة جديدة أبدؤها بسؤال أعرف إجابته مقدماً، وهي بالنفي، هل يجرؤ أحدنا، أن يعرض ابنته أو أخته بصفة خاصة على غيره ليتزوجها، بالطبع ستثير هذه الحالة الأقاويل، لكن عندما نرقى إلى مستوى الصحابة نتذوق طعماً جديداً للإيمان، يكون معه عملنا جديداً وقوياً.

إننا أمام أمنا حفصة بنت عمر بن الخطاب، التي ترملت شابة بعد استشهاد زوجها، فنجد أن عمر ﵁ يعرضها على أبي بكر فيعتذر في أدب، ويعرضها بعده على عثمان فيعتذر في أدب كذلك، فيذهب إلى الرسول فيطيب الرسول خاطره، ويقول له: يتزوج عثمان من هي خير من حفصة، وتتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتم زواج الرسول إرضاء لعمر، ويسجل التاريخ هذا الموقف الكريم لعمر في السعي لستر ابنته لدى رجال متزوجين، ولا يستهجن أحد فعله، ولا تغضب منه زوجة أبي بكر ولا زوجة عثمان، بل الكل يعيش في بيئة جديدة تزرع للآخرة، تنظر لأهداف بعيدة، تأتي تصرفاتهم على قدر إيمانهم الذي رفعهم من الأرض وحلق بهم في السماء، فيقابل أبو بكر عمر فيقول له: لا تجد علي يا عمر، فإن رسول الله قد ذكر حفصة فلم أكن أفشي سراً لرسول الله ﷺ، ولو تركها لتزوجتها ويقول له عثمان ﵁ مثل ذلك.

الصورة الرابعة:

انتقل لصورة أخرى أبدؤها بقصة حدثت مع صديق، يعمل مفتشاً للتحقيقات بمدارس التربية، ومن خلال عمله التقى بأخت مسلمة تعمل مدرسة وحدثها في الزواج ورحبت، وذهب إلى أبيها فانتفض الرجل سائلاً... هل حدثتها: فقال على الفور: ولا رأيتها، ولكن سمعت عن دينها، فهدأت ثائرة الرجل واطمأن وبدأت المفاوضات العقيمة التي تحطمت على صخرة المال.

فإيمان باللسان سهل، أما بالعمل فصعب، أرأيتم لماذا لو أنفق أحدنا مثل أحد ذهباً فإنه لا يبلغ مدّ واحد من صحابة رسول الله ولا نصيفه. ادرسوا حياتهم العملية تدركون السبب، وتعرفون البون الشاسع بيننا وبينهم، وصدق رسول الله حين أشار إلى رجل متنطع في الدين وقال... يخرج من ضئ ضئ هذا من تحقرون عبادتكم بجوار عبادتهم... وقراءتكم للقرآن بجوار قراءتهم، ولكنهم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرميّة، لأن الشقشقة والتمتمة شيء، والقدرة على مواجهة المجتمعات المريضة بالفعل شيء آخر، لذلك يستحق الجريء بالفعل لاحياء سنن المصطفى أجر شهيد، كما قال رسول الله ﷺ لمن يحيي سنته عند فساد أمته... أعود فأقول: فماذا قدم لنا رسول الله العظيم من جديد في خطبة النساء. نعم قدم لنا الخطبة المباشرة حين عرض الزواج من نفسه على جويرية بنت الحارث، عندما جاءت تستعينه في فداء نفسها من الأسر، فقال لها: هل لك في خير من ذلك قالت وما هو: قال أعتقك وأتزوجك، قالت: نعم. وهذا حدث أيضاً مع أم سلمة، فمن قائل إنه أرسل لها رجلاً يخطبها، ومن قائل إنه شافهها بنفسه

فاعتذرت قائلة: إنني امرأة مسنة وذات عيال، وشديدة الغيرة... فقال رسول اللّه: أما عن السن فأنا أكبر منك، أما العيال فأضمهم إليَّ، وأما الغيرة فسأدعو اللّه أن يذهبها عنك. وجاءتنا هذه الخطبة الميمونة بدروس. أهم هذه الدروس: أن الذي زوج أم سلمة هو ابنها الصغير سلمة، وهو الذي وضع يده في يد الرسول، وبهذا يشب ذو نفس سوية لشعوره أنه هو الذي أدخل الرجل الجديد في حياة والدته، ولا ينظر إليه نظرة الغاصب الدخيل. أي صورة من صور إكرام أطفال الزوجة خلاف هذه الصورة من ابن مدرك، ستظل تطبع أثرها الأليم في نفوس الأبناء عندما يتجاهل دورهم في مثل هذا الزواج. درس آخر أخذناه من خطبة أم سلمة هو أنه سبق وأن تقدم إليها عقب انقضاء عدتها كل من أبي بكر وعمر فاعتذرت بلطف، وجاء حظها مع رسول اللّه لتكون أمًّاً للمؤمنين.

ودرس ثالث هو أن الزواج بعد عائشة ليس معناه أن الرسول قد قلى عائشة وهجرها، فمكانها في قلبه لم تصل إليه زوجة أخرى، لكن البواعث في حياته تتعدد، ولا شأن للباعث بالحب، وهذا عكس ما تصوره أفلام اليوم للتنفير من شريعة اللّه العادلة بتصوير الزواج الثاني بالصورة التي تكون على حساب الأولى في كل شأن، ومن الطبيعي أن تخلق منه في طبيعة المرأة المسلمة أشد أنواع النمور، بعد أن كان أمراً طبيعياً في حياة الصدر الأول، وحلت به عملياً جميع مشاكلهم.

وأم هانئ بنت أبي طالب قالت: خطبني رسول اللّه ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني.

أما أفلام الشيطان فتصور الاعتذار على إنه إهانة للخاطب، ولابد أن ينتقم أو يدبر الحيل للوصول إليها من أي طريق.

الصورة الخامسة:

ونوع جديد في خطبته لأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وهو كيف يتم الأمر عن طريق الوكالة، حيث أرسل الرسول ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة يوكله في تزويجه من أم حبيبة، بعد أن ارتد زوجها عن الإسلام، وأبت هي أن تتابعه على الردة ونصحته ففارقته. امرأة تهجر زوجها بعد ردّته عن الاسلام (لا عيب في الأمر، بل تكريم) وتبقى ثابتة على الحق وهي في غربة عن أهلها في حياة المهجر في الحبشة. ان ذلك اذا ما حدث في زمننا هذا، ستكون مذل هذه المرأة المضحية، محل تفكّه وتندّر، حتى لو كان زوجها من أرباب السكر والخمور، لكن الدروس تتوالى علينا من الرسول وأصحابه لعلنا نستفيد ونخرج من قولبة التقاليد البالية.

أرسل النجاشي جارية يقال لها أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودهنه، فاستأذنت على أم حبيبة وقالت: إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إلي أن أزوجكه، فقالت بشرك الله بخير قالت: ويقول لك الملك وكلي من يزوجك، فأرسلت إلى خالد بن سعيد الأموي (ابن عمها) فوكلته، وأعطت أبرهة سوارين من فضة وخدمتين كانتا عليها، وخواتيم من فضة كانت في أصابع رجلها، سروراً بما بشرت به. لكن النجاشي أمرها أن ترد الهدية إلى أم حبيبة، باعتبارها في ضيافة ملك وبجواره وحمايته.. تقديراً واحتراماً.

وفي المساء حضر جعفر بن أبي طالب مع جميع المسلمين، فخطب النجاشي فقال: الحمد لله القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، أشهد أن لا إله إلى الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأنه الذي بشّر به عيسى بن مريم. أما

بعد... فإن رسول الله ﷺ كتب إليّ أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وقد أصدقتها أربعمائة دينار ثم سكب الدنانير بين أيدي القوم... فتكلم خالد بن سعيد الذي وكلته أم حبيبة عنها فقال... الحمد لله أحمده وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدٌ عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. أما بعد... فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان فبارك الله لرسوله، ودفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها ولما أرادوا أن يقوموا قال... اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزوج، فدعا بطعام فأكلوه.

الصورة السادسة:

وخطبته لزينب بنت جحش المطلقة، فيها درس في تربية المجتمع المسلم على دوام المحبة بين رجاله، فهل فكّر أحدٌ عندما يتزوج امرأة مطلقة أن يرسل إليها زوجها السابق خاطباً، إن جاهليتنا تنفر من المطلقة، لأن رجلاً يدبّ على الأرض كان زوجاً لها، وترى جاهليتنا أن الأرملة أخف وطأة على النفوس، وما هكذا يعلمنا الرسول فزينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة. وهو نفسه زيد الذي ذهب عن طيب نفس مبعوثاً من الرسول إليها، وقال: إن رسول الله أرسلنا إليك يذكرك. فقالت: حتى أوامر ربي (أي أستخيره). وقامت إلى مصلاها وكانت تفخر على نساء النبي قائلة زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات.

الصورة السابعة:

وخطب امرأة لم يرها تسمى قتيلة زوجها أخوها، وقد كانت في حضرموت ولما حضرته الوفاة قبل أن تصل إليه وكانت في الطريق أوصى بأن تخير بأن يضرب عليها الحجاب وتصبح من أمهات المؤمنين، أو إن شاءت الفراق فاختارت الفراق، وتزوجها عكرمة بن أبي جهل.

نعم هو الذي أوصى ﷺ بأن يرى الخاطب خطيبته أولاً فإن ذلك أحرى أن يؤدم بينهما، لكنه في نفس الوقت لا يحرّم صورة من الخطبة تحدث لاعتبارات يعزّ فيها رؤية الخطيبة، إن الله يشرع للبشر في جميع الأحوال، غير اننا وضعنا من عند أنفسنا قيوداً ما أنزل الله بها من سلطان، فكان لابد من الهدي لنا حتى فيما يعتبر من الأحوال النادرة.

الصورة الثامنة:

ونوع جديد من الخطبة استجابة لمصلحة عليا رآها أصحابه، ووجدها في محلها، حين كلموه في أهمية زواجه من صفية بنت حُيَيّ سيدة بني قريظة والنضير، وقالوا إنها لا تصلح إلا لك لأنها كانت بنت أمير القوم، ومن أعقلهم وأصيبت في أعزّ أهلها، فأرسل الرسول ﷺ إلى دحية التي وقعت في نصيبه وقال له: خذ جارية أخرى من السبي غيرها، ثم أعتقها الرسول وتزوجها، وأسلم بسببها عدد كبير من أهلها. ومن منا اليوم ترى قيادة الجماعة مصلحة في تزويجه بامرأة ما فيستجيب، ولا تقوم في بيته مندبة ولا يتملص من هكذا مشروع اجتماعي بشتى الحيل.

الصورة التاسعة:

ودرس جديد من خطبة برّة أخت أم الفضل زوج عمه العباس، كانت زوجة مسعود بن عمرو الذي اغتمّ لنصر المسلمين في خيبر، وفرحت هي فتشاجرا فافترقا، وقد غير الرسول اسمها إلى ميمونة، وهي التي كلمت أختها أم الفضل في رغبتها في الزواج من رسول الله، وفوضت أمرها إلى أختها فكلمت أم الفضل زوجها، فكلم العباس بدوره رسول الله ابن أخيه، وكان زواج ميمونة فعلاً وحدثاً مؤثراً في الصراع مع قريش في تلك الفترة الحرجة، لأن الزواج حدث عند زيارة المسلمين لمكة، عندما سمحت لهم قريش بالعمرة لمدة ثلاثة أيام، وحيث إنها خالة خالد بن الوليد فقد تأثّر لإسلامها وأحدث إسلامها دوياً في مكة، فكان مقدمة طيبة لإسلام خالد بن الوليد الذي غير موازين القوى على الارض، بين المسلمين والمشركين في جزيرة العرب. فطن الرسول لأبعاده وحاول أن يقيم الفرح في مكة قبل عودته فأبى المشركون، فقال لهم: ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه... فقالوا: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا... ونأخذ الدروس من هذا الزواج في كونها، هي التي رغبت في الزواج من الرسول، وفي حق الزوج في تغيير اسم زوجته... وأيضاً ريحانة من بني النضير التي دخل عليها الرسول بعد أن وقعت في الأسر، وقال لها: إن أحببت أعتقتك وتزوجتك فعلت، وإن أحببت أن تكوني في ملكي فقالت: يا رسول الله أكون في ملكك أخف عليَّ وعليك، فكانت في ملكه حتى ماتت، وفي رواية أنها أسلمت وأعتقها الرسول وتزوجها وأصدقها ١٢ أوقية كما يصدق نساءه. وهي ثاني امرأة يهودية تزوجها

النبي ﷺ بعد صفية بنت حيي. فتأمل أخي القارئ وأختي القارئة سعة أفق هذا الدين ورحمته بالناس أجمعين، وحكمة نبيه الكريم في التصرف برحمة ولطف وإحاطة بكافة الظروف والنفوس مهما اختلفت وتنوعت أعراقها وأديانها وثقافاتها.

الصورة العاشرة:

وأخيراً تلك التي عرضت نفسها ولم يقبلها وبها تتم الصور... جاءت امرأة إلى رسول الله فقالت: يا رسول الله إني وهبت نفسي لك، فنظر إليها الرسول ﷺ فصعد النظر إليها وصوبه ثم طأطأ رأسه، فقامت طويلاً فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم تكن لك فيها حاجة... فقال: هل عندك شيء تصدقها؟.

قال: ما عندي إلا إزاري هذا... قال فالتمس ولو خاتماً من حديد فالتمس فلم يجد شيئاً... فقال رسول الله ﷺ: هل معك من القرآن شيء... قال: نعم سورة كذا وسورة كذا فقال: زوجتكما بما معك من القرآن. وفي رواية انطلق فقد زوجتكها فعلمها القرآن. وفي رواية طريفة بعد أن لم يجد خاتماً من حديد قال لرسول الله: هذا إزاري فلها نصفه. فقال رسول الله ﷺ: ما تصنع بإزارك؟ إن لبسته لم يكن عليها، وإن لبسته لم يكن عليك منه شيءٌ، فجلس الرجل طال مجلسه ثم قام فرآه رسول الله مولياً، فأمر به فدعي فلما جاء قال: ما معك من القرآن؟ قال: معي سورة كذا... الخ[٩١]. وقد علم الرسول الكريم ﷺ من طلب هذه المرأة الفاضلة

[٩١] رواه الخمسة.

العفيفة، أنها بحاجة الى رجل يتزوجها، وأنها وهبت نفسها للنبي، لكي يختار لها ما يراه مناسباً من الرجال، ان لم يكن هو يرغب فيها، وفي كلٍ خيرٌ وبركةٌ.

المهور وأنواع العرس في حياة الرسول ﷺ

لم يفرق الرسول ﷺ في كل المهور التي دفعها بشخصه بين ثيب وبكر، ولا بين عجوز وشابة، ولا بين من أحب ومن ضعف حظها من الحب، ولا بين اختلاف أحواله من عسر ويسر... إذ كانت جميع المهور متماثلة، لم تتعدَّ اثني عشر أوقية، أي أربعمائة درهم، أما المهور التي دفعت من قبل غيره كتلك التي دفعها النجاشي لأم حبيبة، أو التي دفعها عمه أبو طالب لخديجة رضي الله عنها قبل البعثة فلم تدخل تحت المستوى العام الذي ارتضاه الرسول ﷺ لجميع نسائه في جميع أحواله... ذلك لأن النجاشي دفع عن الرسول ﷺ أربعمائة دينار، وكذلك فعل عمه أبو طالب، وفي قول إنه دفع عشرين بكرة... وفيما عدا ذلك فقد كانت جميع المهور متماثلة. وفي ذلك حكمة لنا بعدم المغالاة في المهور، وعدم التمييز بين النساء في الجانب الانساني ومراسيم الزواج، كالوضع الاجتماعي والاقتصادي، وكذلك الوضع الخاص بكل امرأة وما لها من صفات ومميزات تختلف عن سواها. فالمرأة تطلب للزواج لبواعث وأسباب عديدة، تختلف باختلاف الرجال ورغباتهم ودواعيهم، فلا ينبغي التمييز بين النساء في المهر والعرس والتجهيز، وحسب طاقة الرجل وقدرته، فهناك الكبيرة والصغيرة من حيث العمر، وهناك الجميلة والقليلة الجمال من حيث الشكل والهيئة، وهناك البكر والثيّب.. الأرملة والمطلقة .. والغنية والفقيرة.. وهكذا. فكلهم سواء في ميزان النبوة وشريعة الاسلام العادلة.

فنجد إنه ﷺ قد أصدق عائشة رضي الله عنها قصعة، قدحاً، فراشاً حشوه ليف، رحى قيمت بحوالي أربعمائة درهم. وإنه ﷺ قد أصدق حفصة رضي

الله عنها أربعمائة درهم، ثمناً لبساط ووسادتين وكساء رحب يفترشان نصفه، ويلتحفان بالنصف الآخر في الشتاء وإناءين أخضرين.

وإنه ﷺ أصدق ميمونة أربعمائة درهم. وإنه ﷺ أصدق جويرية أربعمائة درهم، وأن رسول الله ﷺ أصدق زينب بنت خزيمة أربعمائة درهم، وإنه ﷺ أصدق ريحانة مثل بقية نسائه، وإنه ﷺ جعل صداق صفية رضي الله عنها هو عتقها.

ولما سأل سلمة الصغير رسول الله عن قيمة صداق أمه أم سلمة رضي الله عنها قائلاً لرسول الله ﷺ: ما تسوق إليها من الصداق؟ قال ﷺ: كما أصدقت عائشة.

لما خطب الرسول ﷺ أسماء بنت النعمان بن أبي الجون بن الأسود بن الحارث دفع لها مهراً اثني عشر أوقية فقال أبوها... يا رسول الله لا تقصر في المهر... فقال ﷺ: ما أصدقت أحداً من نسائي فوق ذلك.

ولم يتغير مقدار المهر سواء عندما تزوج بسودة بنت زمعة وهو محارب من قريش في مكة، ويعيش في أشق الظروف، ولا عندما تزوج بميمونة في غزوة الحديبية، وقد دانت الجزيرة العربية لسلطان الإسلام... وليس من طبع البشر هذه الدقة من الالتزام ولكنه الهدي النبوي. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألا لا تغالوا بصداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا وتقوى عند الله، لكان أولاكم بها نبي الله... ما علمت رسول الله نكح شيئاً من نسائه ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من اثني عشر أوقية[٩٢].

[٩٢] انظر: كتاب كواكب حول الرسول وتعدد الزوجات/ د. عبد الحليم خفاجي.

وما أكثر المظاهر في عصرنا، وما أبعدنا عن هدى رسول الله بتأويلات كثيرة للأحاديث والآيات، تنم عن ضعف الإيمان وغلبة الفساد، وحياة البذخ والإسراف هي أحد الأسلحة التي يدأب الإعلام الغربي إبرازها وتضخيمها، لتشويه المسلمين والصد عن الدخول في الإسلام. فالإعلام هنا يبرز المسلمين إما في صورة البذخ المسف، أو الفقر المدقع، أو القسوة الشديدة خلال الحروب والضحايا، وقد عرض منذ مدة في التلفزيون الألماني صورة فرح خليجي أريقت فيها الأموال كما تراق الدماء. حظي الفيلم بتعليق ساخر من المذيع، فضلاً عن الغمز واللمز في الإسلام، بإظهارهم صورة المساجد والمصلين خلال عرض الأفراح وجعلوا عنوان البرنامج (الرجال والأطفال).

وأذكر لرئيسة تحرير أحدى المجلات العربية موقفاً نبيلاً عندما حملت المجلة على أحد الأفراح الخليجية التي تعدت حدود المعقول... وبالجملة فالمسلمون يعيشون حياة بعيدة عن الهدي النبوي إلا من عصم الله، حيث فقدوا في أفراحهم القدوة الحسنة وساد التفاخر والتنافس في المهور، وسعرت الفتيات، ونال فريقاً من النساء أكبر قدر من الظلم، وهم الثيبات من الأرامل والمطلقات، حيث استقر في الذهن الاجتماعي عدم مساواتهن بالأبكار في المهور وأفراح العرس؛ وذلك على خلاف هدي الرسول ﷺ الذي ساوى بين الجميع في المهور، بل ورخص في أن يكون المهر ولو خاتماً من حديد، وذكر أحد المدرسين العرب بالمدرسة الألمانية الإسلامية بميونخ عن توسطه في زواج امرأة مطلقة، حدث لها ولأهلها صدمة قوية

عندما أصر الخاطب على ألا يدفع أكثر من مائة جنيه مهراً لأنها غير بكر... وفشلت الزيجة بسبب هذا التقدير السيئ من العريس.

أما عن أنواع العرس:

عرس السيدة خديجة رضي الله عنها:

لقد دخل بها الرسول في بيتها، وهي صورة مختلفة عن دخوله بعائشة رضي الله عنها في بيت أبيها ريثما هيأ لها بيتاً خاصاً.

هنا البيت بيت العروسة بكل ما كان عليه قبل الزواج، ومعلوم أن السيدة خديجة رضي الله عنها كانت قد تزوجت مرتين قبل الرسول، ولها من كل زواج أبناء كبار السن... في مثل هذه الحالة يشق عليها حين الزواج الجديد أن تلتزم بترك بيتها وأسرتها وتجارتها، لتنتقل إلى بيت الزوجية... فكان في مثل هذه الصورة الواقعية من دخول الرسول بها في بيتها دون أن يتغير شيء في حياتها المستقرة، نموذج عملي واقعي لحالات قد تتشابه معها، وبهذا يتم رفع الحرج في حياة المسلمين، برؤيتنا لجميع صور الدخلة التي لا تخرج حياة العروسين عن واحدة منها من خلال تيار الحياة المتدفق، لا من خلال الجمود عند شكل واحد معين لا تقوم الحياة الزوجية إلا به، لأن ذلك في الواقع يعطل قيام كثير من الزيجات، التي لا يسهل فيها انتقال العروس إلى بيت العريس...

عرس عائشة رضي الله عنها:

دخل الرسول بعائشة رضي الله عنها في بيت أبيها أبي بكر ﷺ، ريثما هيأ لها الرسول بيتاً خاصاً، بعد بناء مسجده ﷺ، حيث كان البيت الجديد ملحقاً بالمسجد مثل بقية بيوت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن من بعدها. قالت عائشة رضي الله عنها: دخلت أمي فإذا رسول الله ﷺ جالس في بيتنا، وعنده رجال ونساء من الأنصار، فاحتبستني أمي في حجرة ثم قالت لرسول الله: هؤلاء أهلك بارك الله لك فيهم وبارك لهم فيك، فخرج الرجال والنساء وبنى بي في بيتنا، ما نُحر عليَّ جزور ولا ذُبحت شاة حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنة.

وقالت رضي الله عنها: لقد تحصل رسول الله قدح من لبن، شرب الرسول منه ثم تناولته على استحياء فشربت منه.

وكان أثاث البيت عبارة عن قصعة وقدح وفراش حشوه ليف ورحى، كما ضم الأثاث الدمى التي كانت تلعب بها.

أما حفصة رضي الله عنها فقد أولم عليها المهاجرون دون الأنصار رطبة مأقوطة بسمن وتمر وعجوة.

أما ريحانة رضي الله عنها فقد دخل بها الرسول ﷺ في بيت أم المنذر.

أما أم حبيبة رضي الله عنها فإن النجاشي هو الذي أصدق عن الرسول ﷺ كما أولم عنه أيضاً، حيث قال للصحابة ﷺ بعد القران: اجلسوا فإن سنَّة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزوج.

أما أم سلمة رضي الله عنها فقد دخلت على متاع زينب بنت خزيمة رضي الله عنها، التي توفيت عن أكثر من ستين سنة، وتركت بالبيت جرة فيها شعير، ورحى وبرمة وقدر وقعب، فطحنت الشعير وعصدته في البرمة، وقدمت الطعام للرسول ﷺ.

أما زينب بنت خزيمة رضي الله عنها فقد أولم الرسول عليها بجزور، وغدا الناس على النبي بالهريسة فلم يجتمع لهم إلا الهرائس، فدعى النبي لهم بالبركة.

أما زينب بنت جحش فقد ذبح المصطفى شاة، وأمر مولاه أنس بن مالك أن يدعو الناس، فترادفوا أفواجاً، يأكل كل فوج ويخرج، ثم يدخل فوج آخر، إلى أن قال أنس: يا رسول الله دعوت ما أجد أحداً أدعوه، وقيل بلغ عدد المدعويين ثلاثمائة شخص، وانصرف الناس وبقى ثلاثة نفر يتحدثون والعروس وجهها للحائط وطال سمرهم حتى تحرج النبي، فقام ومرّ على زوجاته، ثم عاد فوجدهم مستمرين، فعاد إلى بيت عائشة وترك معهم أنس بن مالك ليخبره عند انصرافهم إلى أن انصرفوا. وكانت هذه الواقعة سبباً في نزول آية الحجاب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً

فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً﴾[93].

أما صفية رضي الله عنها فقد دخل بها في قبّة ضربت له في طريق عودته من خبير إلى المدينة، حيث جاءت أم مالك بن أنس فمشطتها وجملتها ثم بنى بها. ووقف أبو أيوب الأنصاري يحرس الخيمة، فلما أصبح وجده الرسول ساهراً فسأله الرسول قائلاً: ما لك يا أبا أيوب؟ قال: يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة، لأن أباها قُتل وزوجها كذلك وكثير من أهلها، وهي حديثة عهد بكفر فخفتها عليك، فدعى له وقال: اللهمَّ احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني.

ومما يذكر أيضاً أن رسول الله ﷺ هم بالدخول بها في خيبر فامتنعت، فأمهلها ليتحقق السبب ولم يأخذها قسراً كما يفعل الجهلة، فلما ارتحل في طريقه إلى المدينة وضربت القبّة سألها عن سبب امتناعها أولاً فقالت له: لأني خفت عليك يهود، فسرَّ ﷺ لمعرفة الدافع الكريم، ولقد أولم الرسول عليها بأن بسط نِطْعاً له وقال: من عنده شيء فليأت به، فتسابق الصحابة بما لديهم من تمور وأقط وسمن، ولما وصل المدينة أنزلها في بيت صاحبه حارثة بن النعمان ريثما يعد لها مكاناً بين زوجاته. وعندما خطب الرسول ﷺ أسماء بنت النعمان أرسل أبا أسيد الساعدي لإحضار العروس.

---

٩٣ سورة الأحزاب/ ٥٣.

أما مارية رضي الله عنها فقد نزلت في بيت خاص منفرد في أطراف المدينة... أما ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها فقد ساق الرسول إليها بيتاً تاماً وخادماً ومتاعاً، وأولم عليها ونحر جزوراً... ولما علمت بخطبة الرسول لها وهي تسير على بعير قالت: البعير وما حمل لله ورسوله... تزوجها الرسول بمكة، ودخل بها في الطريق بمنطقة يقال لها سرف في عمرة القضاء على بعد ٦ أميال من مكة... وغير الرسول اسمها من برة إلى ميمونة. وأخيراً روت حديثاً عن النبي ﷺ فقالت: جاء النبي ﷺ فدخل حين بنى علي، وكانت قد تزوجت بإياس بن البكير الليثي فجلس على فراش... فجعلت جاريتان لنا يضربن بالدف ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر (أي يذكرن أوصاف أبيها معوذ وعميها عوف ومعاذ الذين استشهدوا في بدر، وما كانوا عليه من نجدة وكرم وما عرفوا به من بسالة وإقدام) إذ قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد. فقال لها النبي ﷺ: دعي هذا... وقولي بالذي كنت تقولين[٩٤].

٩٤ صحيح البخاري – باب إباحة الضرب بالدف في النكاح والوليمة.

الدروس المستفادة:

من هذه الصور العديدة للعرس في حياة الرسول على جميع الحالات المشروعة، ولا نجمد عند صورة بعينها ويخطئ ما عداها فها هو الرسول ﷺ قد دخل بعروسه في بيتها وفي بيت أبيها، أو في أثناء السفر، أو على متاع زوجة ماتت قبلها، كما دخل ببعض زوجاته في بيت قريبة له، أو أنزلها في بيت صاحب له، أو خصها بسكن مستقل، كما أولم عليه الصلاة والسلام بشتى الصور: بشاة، أو بجزور أو بالتمر، أو بالهريسة أو الأقط والسمن، أو بجفنة وقدح لبن أهدي إليه، أو بدعوة أصحابه لإحضار ما لديهم، وبسماعه لغناء الجاريتين، فهل بعد ذلك سماحة ويسر كسماحة الإسلام، وهدي محمد ﷺ الذي يربي المؤمنين من خلال حياته الخاصة مع أمهات المؤمنين، اللائي تستوعب حياتهن كل ما يمرّ على البشر في هذا اليوم السعيد في حياتهم... ألم نكن نحن الذين في حاجة إلى معرفة هذه الصور العديدة لرفع العنت عنا.

لست في حاجة إلى أن أذكِّر بأنَّ الهدى النبوي، في علاقة الرجل بالمرأة، في كل أحوالهما على مدار الحياة الزوجية، إنما هو للمؤمنين والمؤمنات الذين لم يرثوا من الأمراض المزمنة التي لصقت بالإنسان في كلِّ آية ورد فيها ذكر للإنسان، من طغيان أو هلع أو جزع، أو بخل أو خسر أو إعراض، أو ضعف أو يأس، أو جهل أو ظلم، أو جدل أو غرور... للمؤمنين والمؤمنات الذين حيت نفوسهم بالإيمان، وتشغلهم أهداف جديدة في ظلِّ قيم جديدة، تغاير قيم الجاهلية، وفي كنف مجتمع جديد له أصوله الاجتماعية والاقتصادية والسياسية... مجتمع

عقائدي شاسع البون عن مجتمعاتنا المعاصرة. أما مع غيبة التربية الإيمانية وغيبة المجتمع النموذج، فإنَّ القدرة على الاستفادة من الهدي النبوي لا يقوى عليه إلا قلَّةٌ من الرجال والنساء، لهم ولهنَّ قدرات خاصة، وصفهم الرسول الكريم في أحاديثه الشريفة بأنَّهم سيظلّون (ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم)، (لا يجدون على الحق أعواناً)... (للواحد منهم أجر شهيد)، وذلك هو جزاء من أحيى سنة التعدد أو غيرها من السنن النبوية الكريمة، سواء كان رجل أم امرأة.

وستظلّ المعاناة والمشاكل هي قدر الرجل والمرأة في مجتمعاتنا المعاصرة، مهما أصدرنا من القوانين، ومهما سوَّدنا الصفحات في حلول المشكلات الفردية.

البكر والثيب في حياة الرسول ﷺ

نعود بعد هذا التذكير إلى حياة الرسول ﷺ مع زوجاته، رضي الله عنهنَّ... ليأخذ كلَّ مؤمن ومؤمنة منها ما يناسبه، ليهتدي به في ظلمات الحياة، فنجد أنه ﷺ قد تزوج بالبكر وبالثيب، ولو أن الرسول ﷺ تزوج بكراً أخرى غير عائشة رضي الله عنها، لكان ذلك مدخلاً قوياً للذين لا يألون جهداً في الطعن على رسول الله. ذلك أن الاقتصار على الزواج من بكر واحدة أمر يخرج عن الميل والهوى، خاصة وهو القائل لجابر ﷺ، حين تزوج ثيباً لترعى إخوته: «فهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك، وتضاحكها وتضاحكك»...

إذن وراء ذلك حكمة، فكانت عائشة رضي الله عنها نموذجاً كافياً لهذا النوع من النساء، بها تحقق كلّ ما يلزم تربيتنا عليه، وكلّ ما يلزم، معرفته من أمر البكر، صغيرة كانت أم كبيرة، فنفس البكر واحدة...

أما عندما ننتقل إلى الثيب فنجدها منوَّعة الظروف، لأنها خاضت تجربة أو تجارب عديدة، وتجربة كل ثيب تختلف عن الأخرى، وكلما تقدمت في السن تقدمت في الخبرة، وتكون قد اجتازت في الحياة محنة أو أكثر من وراء الترمُّل أو التطليق أو الفراق، أو تقلُّب الأحوال بين اليسر والعسر، والغنى والفقر، والعزّ والهوان، فضلاً من مسؤولية رعاية الأيتام، أو كفالة ذوي الأرحام، وتكون قد أدركت في عالمها ما يجري به الحدثان...، فلم تعد تلك الفتاة الصغيرة المنشغلة باللعب والدمى والحالمة بفارس الأحلام، بل إنها الآن قد انحازت عن وعي واختيار (في الصراع الدائر بين الحق والباطل) إلى أحد طرفي الصراع وتحمَّلت مسؤولية هذا الاختيار الصعب، وقد تفارق بسبب ذلك (مثلها مثل الرجال) الأهل والزوج والولد وقد تهجر الأوطان، أو تتعرض للإيذاء، أو تدخل في عداد الشهداء.

من هذا النوع الجديد كانت بقية زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام، فكانت كلٌّ منهنَّ مدرسة قائمة بذاتها لنوع معين من النساء، يأتين من بعدهنَّ، ولنوع معين من الرجال يرتبطون بمثلهنَّ برباط الزوجية، فيكنَّ بحقّ أمهات للمؤمنين والمؤمنات في الأسوة الحسنة من حياتهنَّ مع رسول الله[٩٥].

والمرأة الثيب إما أن تكون مطلقة أو أرملة.

أ. المطلقة:

الطلاق إما أن يكون بسبب من الزوج مثلما حدث لأم حبيبة عندما ارتد زوجها عبيد الله بن جحش عن الإسلام في هجرة الحبشة، وإما أن يكون بسبب

[٩٥] انظر: كتاب كواكب حول الرسول / د. عبد الحليم خفاجي.

من الزوجة، مثلما حدث مع زينب بنت جحش رضي الله عنها، التي كرهت الحياة مع زوجها المسلم: زيد بن حارثة حتى اضطرته إلى طلاقها...

المطلقة قد تكون ذات ولد مثل أم حبيبة، رضي الله عنها، أو لا تكون من ذات الولد، كزينب بنت جحش، رضي الله عنها.

ب. الأرملة: وهي:

١. إما ألا يكون لها أولاد (جويرية، زينب بنت خذيمة، صفية، ميمونة...).

٢. أو يكون لديها أولاد كبار (كخديجة رضي الله عنها).

٣. أو يكون لها أولاد صغار (كأم سلمة وأم حبيبة).

٤. أو لها من تعول من أقارب مثل ميمونة التي ضمَّ الرسول ﷺ عمتها وأختها...

أنَّى لواحدة لها مثل هذا الظرف، في مجتمعاتنا المعاصرة أن تجد فرصتها الكريمة مرة أخرى... إنما تظل دائماً ضحية القيم الجاهلية، التي يروِّجُ لها الإعلام الموجه من خارجنا لخدمة أهداف أعدائنا وأعداء المرأة على السواء، والذي يستخدم لأهدافه أقلام كتَّابنا في غفلة، لتحطيم إسلامنا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

والله تعالى يقول: **﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾** [٩٦].

[٩٦] سورة البقرة/ ٢٣٢.

ولكن مع الأسف فان معظم إعلامنا يعمل في الخط المضاد لهذه الآية الكريمة، فينفّر من المطلقة والأرملة، ولا يعطيهما الفرصة الكريمة للحياة الزوجية من جديد، ويتهكَّم على ذلك ويصوِّر استحالة الحياة مع الواحدة منهن، حتى أحجمت الحرائر عن خوض التجربة في أيّ شكل جديد، وفضَّلت المعاناة في صمت، أو الاستسلام لقيم الشياطين، الذين جنوا عليها، ولم يقدِّموا حلاً للملايين من النساء المبتلية بالأقدار، أو العوانس من النساء التي لم تجد فرصة في شبابها للزواج رغم كثرة من تقدَّم، لظروف خارجة عن إرادتها تخص البيت أو المجتمع أو السياسة أو غيرها من الأسباب، التي قد تجهض محاولات الزواج سواء للمرأة الأرملة أم المطلقة أم من فاتها قطار الزواج، بسبب الأقدار والظروف التي يعلمها الله سبحانه، وقد أعطى لنا الله سبحانه من خلال تشريعه الكريم وسنّة نبيه العظيم، العلاج الناجح بتسهيل الزواج في حالتي الإفراد والتعدد وللأعمار الصغيرة والكبيرة... والله أعلم.

المصادر

القرآن الكريم.

١. تفسير ابن كثير.

٢. الكتب التسعة للأحاديث النبوية الشريفة.

٣. كتاب العهد القديم والعهد الجديد (التوراة والإنجيل).

٤. في ظلال القرآن/ سيد قطب.

٥. شبهات في طريق المرأة المسلمة/ عبد الله بن حمد الهلالي.

٦. حياة الصحابة/ الكاندهلوي.

٧. محمد رسول الله/ محمد رشيد رضا.

٨. شبهات حول الإسلام/ محمد قطب.

٩. معركة التقاليد/ محمد قطب.

١٠. ثقافة الوسط/ علاء الدين المدرس.

١١. الإنسان بين المادية والإسلام/ محمد قطب.

١٢. أشعة خاصة بنور الإسلام/ إيتان دينية.

١٣. تعدد الزوجات في إطار الضوابط الشرعية/ منى عبد الله داود.

١٤. فضل تعدد الزوجات/ الشيخ عبد الله عبد الستار.

١٥. النسب والمصاهرة بين أهل البيت والصحابة/ علاء الدين المدرس.

١٦. كواكب حول الرسول وتعدد الزوجات/ د. عبد الحليم خفاجي.

١٧. فتياتنا بين العفاف والتغريب/ د. ناصر بن سليمان العمر.

١٨. الإسلام وتعدد الزوجات/ الشيخ إبراهيم النعمة.

١٩. رجال ونساء أسلموا/ غوريغوس بن أهرون.

٢٠. القرآن يقوم وحده/ علاء الدين المدرس.

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٧٠١ لسنة ٢٠١١